طَريق الحياة

إلن ج. هوايت

ما هي مواصفات الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية؟ أين يؤدي الطريق الواسع الرحب؟ كم هم الذين يجدون الطريق الأول؟ وكم هم الذين يسلكون في الطريق الثاني؟ ماذا يكتنف طريق الحياة ممّا يجعله وعراً ومرهقاً ؟ هل نشعر بحاجتنا إلى المسيح ونحن على درب الحياة ؟ إلى من يجب أن نتوب ونعترف ؟ ما مقدار الإيمان اللازم للطاعة والنموّ؟ كيف نتعرّف على الله بالعمل الدؤوب والصلاة التي لا تنقطع؟ ما هو أنجع دواء للقضاء على الشكّ وما الذي يوطّد الفرح في قلوبنا ؟

في كتاب «طريق الحياة» منوال سويّ بخطواتٍ ثابتة تقتادنا إلى الملكوت..الملكوت الذي في «وسطكم» والملكوت الذي «تنتظرونه» فهلاّ درجت بثقة وإيمان على هذا الطريق الصعب الميمون المضمون؟

طَرِيقُ الحيَاةِ

تأليف إلن ج. هوايت

المقدمة

يسرنا ان نزف إلى القراء الكرام في اصـــاقع العـــالم العربـــي هـــذه الطبعة الرابعة من كتاب «طريـــق الحيـــاة».

لقد توخينا في الترجمة الثانيـــة هـــذه بســـاطة اللغـــة مـــع مراعـــاة الدقة في الـــــتزام الأصـــل الإنكلـــيزي، ذلـــك لأننـــا نعتقـــد أنّ عـــرض الأبحاث العميقة، ولا سيما في الموضوعـــات الدينيـــة الروحيـــة، التـــي يتناولها هذا الكتاب، يقتضي الإيضـــاح وإحكـــام التعبـــير علـــى نســـق سهل المراس، تمشياً مع الأســـلوب الأصلـــي الخـــالي مـــن التزويقـــات البيانية والمحســـنات اللفظيـــة المنمقـــة، وتفاديـــاً مـــن صـــرف ذهـــن القاريء عن التـــأمل فـــي الحقـــائق الخـــالدة المقدَّمـــة مـــن الله علـــى صفحات هذا الكتـــاب، فـــإن رغبتنـــا إنّمـــا هـــي فـــي أن تكـــون هـــذه الحقائق الثمينة دانية القطوف لخاصّة القـــراء وعامّتـــهم علـــى أحســـن وجه وأتم مـــرام.

ونطلب إلى المولـــى تعـــالى أن يجعـــل هـــذا الكتـــاب بركـــة لقـــراء العربية كما جعله بركة للكثيرين في أكثرَ مـــن عشـــرين لغـــة.

الفهرس

١ـ	محبـــة الله	٥
٢ـ	الحاجــة إلى المســـيح	١٣
٣ـ	التوبَـــة	١٩
٤ـ	الإعـــتراف	٣٢
٥ـ	التســـليم	٣٧
٦ـ	الإيمَـــان	٤٣
٧ـ	الطاعَـــة	٤٩
٨ـ	النمُـــو	٥٨
٩ـ	العمَـــل	٦٦
١٠ـ	التعـرف بـــالله	٧٣
١١ـ	الصـــلاة	٨٠
١٢ـ	الشـــك	٩٠
١٣ـ	الفـــرح	٩٨

الفصل الأول

محبّة الله

تشهد الطبيعة شهادة الوحي بأن « الله محبة» فأبونا السماوي هو مصدر الحياة ومنبعِ الحكمة والوفاء، تأمل مثلا جمال الطبيعة وعجائبَها، ولاحظ ملاءمتَها لجميع حاجات الإنسان والحيوان ولسعادةِ كلِّ الكائنات، فالشمس والمطر اللذان ينعشان الأرضَ ويجددان وجهّها، والجبالَ والبحارّ، والسهولَ والأنهارَ التي تبهج الأبصارَ – كلهُّا تحدثنا بمحبة صانعها الذي يرزق كلَّ حيٍّ في كل آنٍ ومكان. ولقد أنشد في ذلك المرنمُ قائلاً:

عيونُ الكلِّ لا ترجو سواكا لتمنحَهم طعاماً من نداكا
تمدُّ يديك نحو الخلقِ طراً فتشبعُ كلَّ حيٍّ من رضاكا

خلق الله الإنسانَ باراً سعيدا، وصنع له الأرضَ الجميلةَ خلوّاً من كلِّ لعنة، بريئةً من كلِّ فساد، أما اللعنة والموت فقد جلبهما التعدّي على ناموس الله – ناموس المحبة. غير أنّ الآلام التي أثمرتها الخطية لم تحُلْ دون إظهارِ محبةِ الله، بل، كما هو مكتوب «ملعونة الأرضُ بسببك» أي لأجلك. فما الحسكُ والأشواك، متاعبُ الحياة وصعابُها، سوى درجاتِ سلَّمِ القداسةِ والكمال يستخدمها الله وسائطَ لرفع الإنسانِ من وهدة الخطيةِ وانقاذه من نتائجها الأليمة. فلئن كان العالم قد أضحى خاطئا أثيما، ليس المعنى أنّ كلِّ ما فيه محضُ شقاءِ وعناء. فالطبيعة لم تزل تحملُ رسائلَ الرجاءِ والعزاء، إذ أنّ حسكهَا تعلوه الأزهار، وأشواكها تكسوها الورود.

إنّ آياتَ هذه المحبة لمسطورةٌ على كلِّ كمٍّ من أكمام الأزهار وعلى كلِّ ورقةٍ من أوراقِ الأشجار، معلنةً لنا في كلِّ قطرةِ ماء، وفي كلِّ ذرّةِ هباء، وفي كلِّ نجمٍ لامعٍ وفي كلِّ كوكبٍ ساطع، وفي أناشيد البلابل وأغاريد العصافير ـ كلّها تشهدُ لعناية الله بنا وتعلن رغبته الأبوية في إسعادنا طرّاً.

غير أنّ إعلان الطبيعة مع ما فيها من آيات بينات لم يكن كافيا للإنسان لذلك أعطانا الله كلمتَه التي أعلن فيها صفاتِه وكمالاتِه، فحين طلب موسى أن يرى مجدَ الله، خروج٣٣:١٨و١٩، أعلن الله صفاتِه لموسى بقوله تعالى: «الرب إلهُ رحيمٌ ورؤوفٌ، بطيءُ الغضبِ وكثيرُ الإحسانِ والوفاءِ، حافظُ الإحسان إلى ألوف، غافرُ الإثم والمعصية والخطية» خروج٣٤:٦و٧، ثم بقوله للنبي يونان، لأنه «بطيء الغضب وكثير الرحمة»، يونان٤:٣، وأيضا للنبي ميخا «فإنه يسرّ بالرأفة»، ميخا٧:١٨. إن هذا هو مجدُه تعالى.

وهكذا عمل الله على اجتذاب قلوبنا إليه بآياتٍ لا تُحصى مما في السماء وما على الأرض، فقد جرَّب أن يعلن ذاتَه لنا في الطبيعة وبانتسابه إلينا بأعزِّ روابط القربى وأوثقها، وإن كانت هذه تمثّل محبّتَه تمثيلا مبتورا، وعلى رغم ذلك استطاع الشيطان أن يعمي البصائر والأذهان وأن يجعل الناس ينظرون إلى الله نظرة تخوَّف وتهيّب، وييأسون من عفوه ورحمته، ويرون فيه إلهاً قاسيا لا يرحم ولا يُشفق، يُحصي على الناس زلاّتِهم، ويرقب عوراتِهم وسيئاتِهم ويتربّص بهم الدوائر لكي يوقعَ بهم وينتقمَ منهم، فلأجل إزالة هذه النظرة المظلمة، ولكي يعلن لنا محبة الله الفائقة الوصف، جاء يسوع من السماء وحَلَّ بين الناس.

أجل، من السماء جاء ابنُ الله ليعلن لنا الآب، لأنّ « الله لم يره أحدُ قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآبِ هو خبَّر»، يوحنا١:١٨، «ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له» متى١١:٢٧، وحين سأله أحدُ تلاميذه قائلا، أرنا الآب أجابه « أنا معكم زمانا هذه مدّته ولم تعرفني يا فيلبس، الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب» يوحنا١٤:٩.

لقد وصف يسوع رسالتَه ومهمّته على هذه الأرض فقال، «روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأبشرُ المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية» لوقا٤:١٨، هذا كان عمله، « فجال يصنع خيرا ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس»، فكم من قرى عمّها البرُّ والبرءُ، وكم من ضياع نالت الشفاء والعافية لأنّ يسوعَ كان قد اجتاز في وسطِها، فعاد مرضاها وتحنن على صرعاها، وحيثما سار يسوع ابنُ الإنسان، سارت في ركابه المحبّةُ والرحمةُ والحنان، وكفى شاهداً على حبه وعطفه أنّه قد اتخذ طبيعتنا وصار مثلنَا في كلِّ شيءٍ ما عدا الخطية، مما شجّع الخطاة المنبوذين على الدنوّ منه والتحدث اليه، وجعل الصغار يلتفون حوله، ويأنسون به ويتفرسون في ما يبدو على محياه من علاماتِ الجدّ والاهتمام، ودلائلِ الحبّ والإنعام.

لقد حرص يسوع دائما على أن يعلنَ الحقَّ كله، دون أن يكتمَ منه شيئا، أو يخشى فيه لومة لائم، ولكنه فعل ذلك بروح المحبة، وكان في مخالطته الناسَ يوليهم أكبر جانبٍ من عنايته واهتمامه ويراعي معهم كلّ ما تقتضيه واجباتُ اللياقةِ واللباقة، فما عامل أحداً بالغلظة قط، ولا تفوَّه بكلمة موجعة، ولا عمل على إيلام مخلوق بدون داعٍ أو موجب، ولا راقب زلاتِ العباد وسقطاتِهم، ومع

ذلك فإنه لم يتردد قط في مكاشفة الناس بالحقيقة في صراحة وشجاعة منذراً إياهم في ترفّق ووداعة.

فقد نعى على الناس نفاقَهم، ودان نكرَهم وكفرانَهم، ولكنّه كان دائما يمزج تحذيراتِه وتوبيخاتِه بدموعِه وعبراتِه. ومن ذلك أنّه بكى على أورشليمَ المدينةِ التي أحبها، مع أنها لم تقبله، وهو الطريق والحق والحياة، ولقد عامل قومَه بكلِّ رفقٍ وحنانٍ مع أنهم رفضوه، فرفضوا بذلك عونهم وخلاصهم، وكان، مع ما له من العزّةِ الربانيةِ والكرامةِ الإلهية، ينظر إلى كلِّ إنسان فيرى فيه نفساً ثمينةَ قد وُكِل إليه من السماء أمرُ تخليصها وإنقاذها.

تلك هي صفات المسيح كما تجلّت في حياته، وهي بعينها صفات الآب تعالى، فإنّه من قلب الله تدفقت المراحم الإلهية لبني البشر بواسطة المسيح، فيسوع الرؤوف العطوف، إنمّا هو الله قد ظهر في الجسد. ١تيموثاوس٣: ١٦.

ولئن كان يسوع قد عاش وتألمّ ومات، وصار رجلَ أوجاع ومختبرَ الحزَنِ فما ذلك كله إلاّ لكي يجعلنا شركاءه في الأفراح الأبدية. وهكذا سمح الله تعالى بأن ينزل ابنهُ الحبيبُ، مملوءا نعمة وحقا، من عالم المجدِ الفائقِ إلى عالمٍ ملوّثٍ بالإثم، وموبوءٍ بالخطية، وإلى أرضٍ قد جللها سواد الموت، وغشتها أشواكُ اللعنة، بل هكذا سمح الله لابنه الوحيد بأن يترك أحضان المحبة الأبوية، وما يحفُّ به من العبادات الملائكية، لكي يأتي إلى بني البشر حيث هم، محتملا منهم العارَ والهوانُ، والكراهيةَ والنكران. وفي النهاية مات ميتة المذنبين المجرمين، لأن « تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا » إشعياء٥٣: ٥.

تطلع إليه وهو في جثسيمـــاني وهو على الصليب فهذا ابنُ الله القـــدوس، الذي لم يعمل ظلما، ولم يكن في فمه غشٌ، قد ناءت كاهلاه تحت أعباء اللعنـــة وأثقال الخطية، ثم انظر إليه ثانية، فترى ابنَ الله الذي كان في اتحادٍ تـــامٍ مـــع الآب، قد أصبح يشعر بتلك العزلة الرهيبة، والهوّة السحيقة التي تفصل الإنسانُ الخـــاطيء عن الله، مما جعله يصـــرخ صـــرخة متألمٍ متوجّعٍ بقوله « إلـــهي إلهي لماذا تركتني»، متى٢٧: ٤٦، فإن شعوره بفداحة عبءِ الخطية، وإدراكـــه لهول جرمها، وإحساسَه بانفصام عرى الشركة بين النفس والله كانت الأمـــورُ التي عملت على سحق قلب ابنِ الله الحبيب.

على أنّ هذه التضحيةَ العظمى لم يأتها الابنُ ليخلقَ في قلـــب الآبِ محبّـــةً للإنسان، ولم يقصد بها أن يجعل عندَ الآبِ الرغبةَ في العمـــل علـــى خـــلاص الإنسان، كلاّ، « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» يوحنـــا٣: ١٦. فالكفارة، إذن، لم تكن هي علة المحبّة التي أحبنا بها الآب، وإنما الآب أحبنـــا فأعدَّ لنا الكفارة، وكان المسيح هو الواسطة التي بها سكبَ الله محبّتَـــه علـــى عـــالم قد ضـــلّ وهوى، إذ « أن الله كـــان في المســـيح مصالحـــا العـــالم لنفسه»، ٢كورنثوس٥: ١٩. ففي بستان جثسيماني، وعلى صليب جلجثة، تـــألم الآب مع ابنه، ودفعت المحبّةَ ثمن فدائنا غالياً.

وليس أدلّ على محبة الآبِ لنا مما نطق به يسوع نفسُه في قوله: « لـــهذا يُحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها» يوحنا١٠: ١٧. فكأني به يقول: لقد زادت محبة أبي لي وزاد تقديره إياي لكوني قد بذلت حياتي لأجلِكم طائعـــا مختـــارا، ورضيت بأن أكون بديلَكم وكفيلَكم، حاملا ذنوبَكم وموفيا ديونكم، لأنـــه بفضـــل

ذبيحتي الفدائية، وأعمالي الكفارية، أمكن الله تعالى أن « يكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع» رومية٣:٢٦.

لم يستطع أن يفدينا غير ابنُ الله، اذ لم يقدر أن يعلن الله غيرَ الذي كان في حضنه، الذي وحده استطاع أن يظهر محبتَه لأنه سبر غورَها وبلغ ذراها، ولم يكن ليكفي للتعبير عن محبة الله للبشرية الهالكة تعبيرا وافيا إلاّ الذبيحة اللامتناهية التي قدمها يسوعُ لفدائِنا.

«لانه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد»، وقد بذله، لا لكي يعيش بين البشر، ويحمل خطاياهم، ويموت ذبيحة عنهم، فحسب، بل وهبه للجنس البشري هبةً، فصارت شؤونهم شؤونه، وحاجاتِهم حاجاتِه فالذي هو واحد مع الآب ارتبط بالبشرية ارتباطا لا تنفصم عراه أبدا، فهو « لا يستحي أن يدعوهم أخوة» عبرانيين٢:١١، لأنه هو ذبيحتُنا، بل شفيعُنا بل أخونا، يحمل صورتَنا كابن الإنسانِ وهو على عرش الآب، فهو إلى الأبد واحدُ مع الجنس الذي فداه بدمه، وقد صار ذلك كلَّه لأجل رفع الإنسان من وهدة الخطية وخرابِها إلى الاشتراكِ في فرح القداسة وإلى إعلان محبةِ الله للعالمين.

إنّ ثمن فدائِنا الغالي، أي تضحيةَ أبينا السماوي في بذل ابنه الوحيد لأجلنا، ليدلُّ على المقام الرفيع الذي قد نبلغُه في المسيح، فالرسولُ الملهمُ، يوحنا الحبيب، إذ أدرك شيئا من علو محبةِ الله وعمقِها وعرضِها، ولم يجد كلماتٍ بها يعبّر عن عظم هذه المحبة لجنس هالك، دعا الجميع للتأمل فيها قائلا « انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله»١يوحنا٣:١. فما أعظم مقام الإنسان نتيجة لهذا الفداء. فبنو الإنسانِ الذين قد صاروا بالمعصيةِ رعايا

إبليسَ يصيرون بالإيمان بذبيحةِ المسيح الكفارية أبناءَ الله. بتجسده رفع يسوع شأنَ البشرية وجعل الخطاةَ الهالكين في مركز يستحقون فيه اللقب السامي العظيم « أولاد الله».

إن هذه المحبة منقطعة النظير، أن نكون أولاداً لملك السماء. إنه لوعد ثمين وعهد كريم، وموضوع يستحق التأمل العميق – موضوع محبّة الله القدير لعالم لم يحبه. إنّ لهذه الفكرة، إذا استغرق المرء فيها، قوةً على إخضاع النفس، وقدرةً على استنثار الذهن لإرادة الله، لأنّ التأمل في صفاتِ الله، في ضوءِ الصليب، ليعلن لنا الرحمةَ والشفقةَ والمغفرةَ، متحدةً بالعدالة والبرِّ والقداسة، وليجلو لنا آثارَ حبٍّ لا حدّ له، يفوق محبّةَ الأم وحنانها على ولدها التائه الشريد.

حب المخلص الورى الفادي
سام يفوق الوصف والإدراك
فالقلب مشتاق لأن يدري
مستقصيا في بحره إذ ذاك عميقة
نعم سمت محبة الفادي
يا ليت كل الناس تدريها
فتقتفي آثاره طوعا
تابعة كالضان راعيها فتهتدي
حب الذي قد مات مصلوباً
عن اثمنا أسمى من الشكر
مع ذاك قلبي دائما يسمو

ان يشكر الفادي مدى الدهر مرنماً

حب عظيم واسع سام

يأتي بعاص جاهل مثلي

إلى محب حبه أفضى

إلى عذاب الصلب من أجلي لغبطتي

الفصل الثاني

الحاجة إلى المسيح

لقد خُصَّ الإنسانُ، حين خلقه، بقوى سامية وعقلية متزنة، فكانت حياتُه حياةَ الكمالِ والتوافقِ مع الله، وكانت أفكارُه طاهرة، وأغراضُه مقدسةً، ولكنه ما لبث أن عصى ربَّه وخالف أمره، فحلت فيه الأثرة والأنانية محلّ الإيثارِ والتضحيةِ وبات ضعيفاً عاجزاً لا يقوى على مقاومةِ سلطان الخطية وتأثيرِها بجهوده الذاتية وقوته الشخصية، لأنّ الشيطان قد استأسرَه، ولولا أنّ الله تعالى لطف بالإنسان وتدخّل في أمرِه، لأبقاه الشيطان أبدَ الدهر في قبضته وأسره، فقد كان قصْدُ المجرِّبِ أن يعطل تدبيراتِ الله، ويحول دون تحقيقِ مقاصدِه الساميةِ بشأن الإنسان فيملأ الأرضَ علقماً وصاباً، ويجعلها بلقعاً وخراباً، حتى إذا تمّ له ما أراد، نسب كل هذا البلاء المرير والشرّ المستطير إلى الله تعالى، لأنه خلق الإنسانَ وخصَّه بمثل هذا الكيان والوجدان.

فالإنسان في براءتِه كان يتصل اتصالا بهِجاً « بالمذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» كولوسي٢:٣. أما وقد اخطأ فلم يعُدْ يرى في الطهارةِ لذةً وسرورا أو في محادثة ربّه فرحا وحبورا، بل حاول أن يتوارى ويختبيء من حضرة الله، وهذه حالة كلِّ إنسانٍ لم يتجدد بعد إذ أنه لا يكون في حالة وئام مع الله، ولا يشعرُ بفرح في الاتصال به والتحدّث إليه. فالخاطيء لا يمكنه أن يكون سعيدا وهو في حضرة الله كما أنه ينفر من معاشرة الملأ الأعلى، فلو أتيحَ له أن يدخل السماء، لما بعث ذلك فرحاً في نفسه، لأن نفسه لا تطرب لروح الإيثار

الذي يسود سكان السماء، وقلبه لا يتجاوب مع قلب المحبة العظمى، فضلا عن أنّ اهتمامَه، وافكارَه، ودوافعَه، تبدو غريبةً ومناقضةً لبواعث أولئك البررة الأطهار. فهو إذن يكون كنغمةٍ ناشزةٍ في لحن السماء، بل تكون السماء له مكانَ ألمٍ وتعذيب حتى ليودَّ أن يختبيء من ذاك الذي هو مصدرُ نورِها ومبعث بهجتها وحبورِها، فليس حرمان الأشرار من دخول السماء أمرا مقضيا به من الله، بل عدم صلاحيتهم لها هو الذي يحول دون دخولهم إليها، إذ أنّ مجد الله يكون لهم نَارا آكلة، حتى أنهم ليلتمسون الهلاك التماسا تواريا من وجه ذاك الذي مات لكي يفتديهم.

إنه ليستحيل علينا أن ننقذ أنفسَنا من هوة الخطية التي تردّينا فيها، فقلوبُنا شريرة وليس في استطاعتِنا أن نغيّر ما بها، كما يصف ذلك أيوب في قوله: «من يخرج الطاهرَ من النجس. لا أحد». أيوب١٤:٤، وكقول الرسول بولس: «لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعا لناموس الله، لأنه أيضا لا يستطيع» رومية٧:٨. أما وسائل التربية والتعليم، والتهذيب والتثقيف، وتدريب الإرادة، وما إلى ذلك من الجهود البشرية التي تُبذل في سبيل ترقية الإنسان، فهذه كلّها لها قيمتها ومكانتها في نواح أخرى من الحياة، لكنّها في هذا الموضوع بالذات عديمةُ الجدوى. فهي قد تكون ذاتَ تأثير في تحسين سلوكِ الإنسان وصقله من الخارج، ولكنّها لن تقوى على تغييرِ قلبهِ وتطهيرِ بواعثِه وأفكاره، لأن الانتقال من حياةِ الخطيةِ والرذيلةِ، إلى حياةِ القداسةِ والفضيلة، يستلزمُ حتما قوّةً تعمل على تغييرِ الإنسان من الداخل، ويقتضي حياةً جديدةً يؤتاها الإنسانُ من فوق، وهذه القوة هي المسيح، فإنّ نعمتَه وحدها هي التي تُحيي النفسَ المائتة، وتجتذبُها نحو الله، وتستميلُها إلى حياة القداسة والكمال.

وقد قال المخلص إن كان أحد لا يولد من فوق، أي أنّه ما لم يحصل الإنسانُ الخاطيء على تجديدٍ في قلبه وأفكاره، ورغائبه وبواعثه، فإنه لا يقدر أن يرى ملكوت الله.يوحنا٣:٣. فالفكرة في أنّ الحاجةَ الوحيدةَ إنما هي إلى تنمية التقوى الفطرية والصلاحّ الطبيعي الكامنين في نفوسِنا، إن هي إلاّ خدعة مميتة، لأن الإنسان الطبيعي أي غير المتجدد « لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحيا»١كورنثوس٢:١٤. « لا تتعجب اني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق» يوحنا٣:٧، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المسيح وحده هو المكتوب عنه « فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» يوحنا١:٤، وأيضا « ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» أعمال٤:١٢.

فلا يكفي أن نشعرَ برحمة الله، وندركَ ما تنطوي عليه صفاتُه من الشفقة والحنو الأبوي، ولا يكفي أن ندرك حكمة الناموس وعدالتَه، وندرك أنّه قائم على مبدأِ المحبة الأبدي. فبولس كان مدركا لهذه كلّها حين قال « فإني أصادق الناموس أن حسن» رومية٧:١٦، وأنه « مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة» رومية٧:١٢، ولكنّه مضى يقول أيضا وهو في مرارة الألم واليأس «أما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية» رومية٧:١٤، إذ أنه كان يتوق إلى البر والطهارة، ولكنّه كان عاجزا في نفسه عن بلوغهما، مما جعله يصرخ قائلا: «ويحي أنا الإنسان الشقي. من ينقذني من جسد هذا الموت» رومية٧:٢٤. ولقد ردد مثل هذه الصرخة، في كلّ الإعصار والأمصار كثيرون من ذوي القلوب المثقلة بالخطية، ولم يكن لهم من جوابٍ سوى قوله تعالى« هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» يوحنا١:٢٩.

كثيرة هي الصور والرموز التي بها التمس روح الله تمثيل هذه الحقيقة لتكون واضحة جلية لكلٍّ من يتوق إلى التحرر من عبءِ الخطية. ومن تلك الصور ما أعلنه الله ليعقوبَ حين هرب على إثر مخادعته لإسحاق أبيه، فقد كان يعقوب ينوءُ بذنبِه ويرزخ تحت ثقلِ إثمه، حتى أنّ تخوَّفَه من خطيته طغى على كل ما كان يشعر به من الفراق والبعاد، والحرمان والانفراد. وكان جلّ ما يخشاه أن تؤدي خطيتُه إلى فصله عن الله، وإقصائه عن السماء. وبينما هو على هذه الحالة من الحزن والكآبة استلقى على الأرض، مفترشا الغبراء، وملتحفا بالعراء، ولم يكن حولَه سوى تلال موحشةٍ جرداء. ولما نام طرق عينيه نورُ غريب، فإذا منظر سلمٍّ متسع، بدا له من السهل الذي كان مضطجعا فيه، وكان السلم متجها إلى فوق، ومؤديا إلى باب السماء، وعلى درجاته يصعد ملائكة الله وينزلون، ومن المجد الأسنى، سمع الصوت الإلهي يردد رسالة العزاء والرجاء، ويعلن ليعقوبَ ما كان يصبو إليه قلبُه، أي أنه تعالى يكون له حافظا ومخلصا، ففي غمرة الفرح والشكر تجلَّى له الطريق الذي به يستطيع، كخاطيء، أن يستردَّ اتصاله بالله، إذ أن السلم التي ظهرت له في الحلم، إنما هي تمثل المسيح، الوسيط الوحيد، بين الله والإنسان.

وإلى هذا الرمز عينه أشار المسيح في حديثه مع نثنائيل إذ قال « الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» يوحنا١:٥١. فإن الإنسان إذ عصى الله وارتد عنه، قد أقصى نفسه عن حضرة الله، فانفصلت بذلك الأرض عن السماء، وصارت بينهما هوة لم يستطع أحد عبورَها، ولكن بواسطة المسيح، وبفضل استحقاقاتِه، أزيلت الهوة التي أحدثتها الخطية، وأعيد سلم الاتصال بين الأرض

والسماء، فتسنّى إذاً وبه وحدَه يمكن الإنسانُ الضعيفُ العاجزُ ان يجدد اتصالَه بمصدرِ القوة التي لا تُحدّ.

من العبث أن يحلم الناس بإحراز شيء من التقدّم والنجاح، ومن الباطل أن يسعوا لرفع شأن الإنسانية، ما داموا مصرّين على تجاهل ذلك المصدر الأعلى، الذي يجب أن تستمدَ منه البشرية الصريعة كلّ معونةٍ ورجاء، لأن «كل عطيَة صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران» يعقوب١:١٧، ومن العبث أيضاً أن يحاول الإنسان التحلّي بمكارم الأخلاق وهو بعيد عن المسيح، لأنّه ليس من سبيل للوصول إلى الله إلا بواسطةِ ذاك الذي قال عن نفسه « أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» يوحنا١٤:٦.

فقلب الله تعالى توّاق إلى أولاده على الأرض لأنه يكنّ لهم حباً أقوى من الموت، وكفانا آية على هذا الحب العجيب، أنّ الله قد جمع كلَّ بركاتِ السماء ومزاياها في عطية واحدة الا وهي عطيةُ الابن الوحيد، تلك العطية التي لا يُعبّر عنها، فما حياتُه وموتُه وشفاعتُه، وما خدمةُ الملائكة، وشفاعةُ الروح وما الآبُ العامل فوقُ الكل، وما المخلوقاتُ الروحيةُ وهي في شغلٍ شاغل، ما هذه إلاّ قِوى معبأةً، ووسائلَ مهيَّأةً لخلاصِ الإنسانِ خلاصَا أبدياً.

فلنتأمل في التضحية المدهشة التي بُذلت في سبيل خلاصِنا، ولنقدّر كلّ ما جادت به السماءُ، من جهد وعناء، في سبيلِ إنقاذ الهالكين واسترجاع الضالين إلى حظيرة الآب السماوي، فإنه ما من شيء يَخلقُ فينا بواعثَ قويةً، وحوافزَ شديدةً، مثل التأمل في تضحية المسيح، وهلاّ يحفزنا لخدمةِ سيدِنا ومخلصِنا ما

أعدّه من أجرٍ وثوابٍ لمن يفعلون الصلاح، وهلاّ تستهوينا تلك الأفراح السماوية؟ أو لا نطلب حياةَ الرفعة والتسامي، ونرغبُ في ازدياد قوانا ومواهبِنا، واتساع معارفِنا ومداركِنا؟ أو ليست هذه كلّها مما يستحثنا على أن نقدّم لخالقِنا وفادينا خدمةَ المحبة القلبية؟

ومن جهة أخرى فإنّ كلمة الله تحذرّنا من خدمة الشيطان وتعلن لنا دينونة الخطية، وقصاصَها المحتوم، وما يحلّ بمرتكبيها من الانحطاط الأدبي والتدهورِ الخُلقي وما يَلقونه في النهاية من الهلاك الأبدي.

أفلا نقدّر رحمةَ الله؟ وأي شيء كان ممكنا أن يعمله أكثر مما عمل فلنسعَ إذن إلى تصحيح موقفِنا بالنسبة للذي أحبنا حبّا فائقا عجيبا، ولننتفعَ بالوسائط المقدمة لنا، حتى نتغيّر إلى شبهه، ونعادُ إلى عِشرة الملائكة العاملين ونصيرُ في وئام وشركةٍ مع الآب والابن والروح القدس.

	إليك حاجتي	في كل حين
	وفيك قوّتي	ربي الأمين
القرار	كلِّ حاجتي إليك	كل إعوازي لديكا
	كل تكلاني عليكا	ربي يسوع
	إليك حاجتي	في كل حال
	وأنت منيتي	رب الجلال
	إليك حاجتي	في التجربة
	ومنك نصرتي	والغلبة
	إليك حاجتي	وقت الصلاة
	فاسمع لطلبتي	رب الحياة

الفصل الثالث

التوبَة

كيف يتبرر الإنسان عند الله؟ وكيف يتزكّى المذنبُ؟ إنما بالمسيحِ وحده نصيرُ في وفاقٍ مع الله، واتّساق مع القداسة، ولكن كيف يتسنّى لنا أن نأتي إلى المسيح؟ كثيرون يسألون هذا السؤال الذي سأله الجمهور في يوم الخمسين إذ «نُخسوا في قلوبهم» فصرخوا قائلين «ماذا نصنع» أعمال٢:٢٧، وأول كلمة أجاب بها القديس بطرس كانت قوله «توبوا» أعمال٢:٣٧، وما لبث بعد ذلك أن قال في موضع آخر: «توبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم» أعمال٣:١٩.

أما التوبة فهي الحزنُ على الخطية والإقلاع عنها، ولا يقلعُ عنها المرءُ ما لم يتبيّن شرَّها ولا يصيرُ تغييرُ في الحياة ما لم يرجعَ عنها رجوعا باتا.

غيرَ أنّ الكثيرين يخطئون فهم كُنْه التوبة، فمنهم من يحزن على خطيئة، بل يحاول إصلاح سيرتِه إصلاحا خارجيا، لأنّه إنما يخشى أنّ خطيته قد تجلب عليه خسارة وألماً، ولكنّه لم يتب توبة بمعنى الكلمة، لأنه إنما يندب الآلام لا الخطية، فشأنه شأن عيسو الذي بعد أن باع البكورية بكى على ضياع بركاتِها إلى الأبد، وحاله حال بلعام الذي أقر بذنبه، خوفا على حياتِه حين رأى الملاك يعترض طريقه والسيفُ السليلُ بيَده، ولكنّه لم يتب عن الخطية ولم يبغض شرّها، لأنّه لم يغير قصدَه واتجاهه، وهكذا يهوذا الاسخريوطي فبعد أن أسلم سيدّه اعترف قائلا «أخطأت إذ أسلمت دما بريئا» فالذي أكرهه على الاعتراف

هو شعورُه بالإدانة وانتظاره القصاص، لأن العواقب التي لا بدّ من أن تأتي بها الخطية ملأت نفسَه رعباً وقشعريرةً، وأما الحزنَ العميقُ على إنكاره ابـــنَ الله، والأسف الشديدَ على خيانته قدوسَ إسرائيل، فكـــانت نفسُـــه بريئـــة منـــهما، وفـــرعون كان كلّما حـــلت به ضربة من الضربات يصرخ قائلا « أخطـــأت» حتّى إذا ما استجاب الله لصراخه ودعائه عاد إلى عنـــاده وكبريائـــه، فـــهؤلاء جميعهم كانوا يحزنون لا بسبب الخطية ذاتها بل خوفا من عواقبها المؤلمة.

ولكن عندما يستسلم الإنسان لتأثير الروح القدس يحيـــا الضمـــير، فيـــأخذ الخاطيء يدرك شيئا من عمق الناموس وقدسية الشريعة التي هي قاعدة حكـــم الله في السماء وعلى الأرض، ويشرق في نفسه « النور الذي ينير كل إنســان» خارقا إلى الأعماق وكاشفا خفايا القلب فيمتلك فكر الخاطيء الشعور بـــالتبكيت والإدانة، ثم يرى برَّ الله فيعتريه الرعبُ من الظهور بذنبه ونجاسةِ قلبه أمـــام فاحص القلوب ومختبر الكلى، ثم يرى أيضا محبةَ الله، وجمالَ القداسة، وبهجـةَ الطهارة، فيتوق إلى التطهير وإلى استعادة صلته بالسماء.

إنّ الصلاة التي صلاها داود إثر سقطتِه لتصوّر لنا الحزن الحقيقي بســـبب الخطية، فقد كانت توبته خالصةُ وعميقةُ، إذ لم تبدُ منه أية محاولـــة لتلطيـــف جُرمه أو لاستصغارِ ذنبه، ولم تكن الرغبة في النجاة من العقاب الذي هدده هي التي أوحت إليه بهذه الصلاة، وإنّما داود كان قد أدرك فداحة تعدّيه، وتبين لـــه ما في نفسه من دنس ونجاسة، فأبغض الخطية وكرهها، حتى أنه، حين صلـى، لم يلتمس فقط الحصول على الغفران بل طلب أيضا طهارة القلـــب، فقـــد كـــان مشتاقا إلى بهجة القداسة، توّاقا إلى استعادة صلته بالله، كما عبّر عـــن ذلـــك بقوله:

«طوبى للذي غفر أثمُه، وسُتِرَت خطيتُه. طوبى لرجل لا يحسب له الـــرب خطية، ولا في روحه غش» مزمور ٣٢: ١و٢.

«ارحمني يا الله حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امح معاصيّ، اغســـلني كثيرا من أثمي ومن خطيتي طهرني لأني عارف بمعاصيّ وخطيتي أمامي دائما ... طهرني بالزوفا فأطهر، اغسلني فأبيض اكثر من الثلج ... قلباً نقياً أخلـــق فيّ يا الله وروحا مستقيما جدد في داخلـــي، لا تطرحنـــي مـــن قـــدام وجـــهك وروحـــك القـــدوس لا تنزعه مني، رد لي بهـــجة خلاصـــك وبـــروح منتدبـــة أعضدني» مزمور ٥١: ١-٣و٧و١٠-١٢.

«نجني من الدماء يا الله إله خلاصي، فيسبِّح لساني برك» مزمور ٥١: ١٤.

فمثل هذه التوبة ليست في مقدورنا، إنها فوق طاقتنا، وإنما نؤتاهـــا مـــن المسيح الذي إذ «صعد إلى العلاء أعطى الناس عطايا» من بينها عطية التوبة.

يخطيء كثيرون فهم هذه الحقيقة فيفشلون في الحصول على المعونة التـــي يريدها لهم المسيح، إذ يظنّون أنه ليس في إمكانهم أن يأتوا إليه إلا إذا تـــابوا أولا، وأنّ التوبة هي التي تعدّ لهم السبيل للحصول على الغفران، نعم إنّ التوبة تسبق الغفران، لأنّه لا يشعر بحاجته إلى الغفران، إلاّ كلّ ذي قلبٍ منكسرٍ وروحٍ منسحقة، ولكن هل معنى ذلك أنّه يجب على الخاطيء ألاّ يأتي إلى المسيح حتى يتوب أولا؟ وهل نجعل من التوبة عقبة تحـــول دون وصـــول الخـــاطيء إلـــى مخلّصه؟

إنّ الكتاب المقدس لا يعلّم أنّ الخاطيء يجب أن يتوب قبل أن يستجيب لتلك الدعوة التي يناشدنا بها المسيح قائلا: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» متى١١:٢٨، إذ أنّ القوة التي تقودنا إلى التوبة الحقيقية إنما هي قوة من المسيح، كما أوضح ذلك القديس بطرس للإسرائيليين في قوله: «هذا رفعَّه الله بيمينه رئيسا ومخلصا ليُعطي اسرائيل التوبة وغفران الخطايا» أعمال٥:٣١، فكما أننا بدون المسيح لا نستطيع الحصول على الغفران كذلك أيضا لا يمكن الحصول على التوبةِ بدونه.

إنّ المسيح هو مصدر كل باعث حقٍ، وهو وحده القادر أن يغرس في قلوبنا عداوة للخطية، فكلّ رغبةً، تتولّد فينا نحو الحق والطهارة، وكلّ ما نحسّه من الشعور بذنبِنا وإثميتِنا إنما هو دليل على أنّ روحه يعمل فينا.

لقد قال المسيح: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» فيجب أن يُعلنَ المسيح للخطاة مخلصا يموت عن خطية العالم لأننا، إذ نراه، حمل الله، مرفوعا على صليب جلجثة، نأخذ ندرك شيئا من سرّ الفداء، فيقتادنا لطف الله إلى التوبة، فالمسيح بموته عن الخطاة أماط اللثام عن حبّ يفوق الوصف والإدراك، وكلما تأمّل الخاطيء في هذا الحب لانَ قلبُه، وذابت روحُه وانسحقت نفسه فيه.

ويحدث أنّ بعضا من الناس يستهجنون شرّ أعمالهم، فيقلعون عنها وهم لا يدرون أنّ الذي يعمل فيهم ويجذبهم إلى هذا الإصلاح هو المسيح، ولكن الحقيقة هي أنّ كل مجهود إصلاحي يقومون به عن رغبة خالصة لعمل ما هو حق وصواب إنّما هو تأثير روح المسيح الذي يجتذبهم إليه، إذ يستحثّ قلوبَهم،

من حيث لا يشعرون، فتحيا ضمائرهم، وتتغير حياتُهم، وإذ يستميلهم المسيح ليلتفوا إلى الصليب ويروه معلّقا هناك مطعونا بخطاياهم، تتمكن الوصية من ضمائرهم، فيتجلّى لهم شرّ حياتهم، وتنكشف لهم الخطية المتأصلة في قلوبهم وإذ يدركون شيئا من برّ المسيح وكماله يصيحون قائلين ما هي الخطية حتى يستلزم فداءُ فرائسها كل هذه التضحية وهل يتطلّب الأمر كلّ هذه المحبّة وكل هذا الاتضاع وكل هذه الآلام لكي لا نهلك بالخطية بل تكون لنا الحياة الأبدية؟

وقد يقاوم الخاطيء هذه المحبة، وقد يرفض أن ينقاد إلى يسوع، ولكنّه إذا لم يقاوم فإنه لا بدّ من أن ينجذب إليه، إذ أنّ معرفة تدبير الخلاص تقوده إلى الصليب فيأتي إليه نادماً على خطاياه التي سببت كلَّ هذه الآلام لابن الله الحبيب.

إنّ القوة الإلهية التي تعمل في إحياء الطبيعة هي عينها التي تعمل في قلوب الناس وتخلق فيهم شوقا وهياما إلى ما يفتقرون إليه وما لا يستطيع العالم أن يمدّهم به، وروح الله هو الذي يتوسّل إليهم أن يلتمسوا فقط الأشياء التي تنيلهم السلام والراحة، أي نعمة المسيح وبهجة القداسة، فبوسائلَ مرموقةٍ، وغير مرموقة يسعى مخلصنا دائما إلى استمالةِ عقولِ الناسِ من ملذّات الخطية غير المشبعة إلى البركات الثمينةِ التّي ينالونها فيه، فإلى كل من يلتمس عبثا أن يرتوي من آبار العالم المشققة يوجّه الله دعوتَه قائلا: «من يعطش فليأت. ومن يرد فليأخذ ماء حياةٍ مجانا» رؤيا٢٢:١٧.

فأنتم يا من تتوق قلوبكم إلى ما هو أفضل وأسمى مما يعطيكم إياه العـــالم، اعلموا أنّ شوقكم هذا هو صوت الله لضمائركم، واطلبوا إليه أن يمنحكم التوبة، ويعلن لكم المسيح في محبته الفائقة الوصف، وطهارته الكاملة، ففي حياتِه قــد تمثّلت المباديء التي تتلخص فيها الشريعة الإلهية، أعني المحبة لله والمحبـــة للإنسان، فالمحبة والرحمة كانتا جوهر حياة يسوع، حتى إننا إذ نراه نتيقن من نجاسة قلوبنا ونلتمس رحمتَه الغافرة.

قد يكون أنّنا تملّقنا أنفسنا، كما راود نيقوديموس نفسه، فنظــن أنّ حياتَنــا مستقيمة، وأنّ أخلاقنا قويمة فلا نحتاج إلى أن نتذلل أمام الله تذلل أحد عامـــة الخطاة، ولكن متى أشرق في قلوبنا نور المسيح ظهر لنا مدى نجاستنا وأثرتنــا وعداوتنا لله، وعندئذ نعرف أنّ كلّ أعمالِنا ملوّثةٌ بل أنّ أعمال برّنا كثوبِ عدّة، وأنّ دم المسيح وحده كفيل بتطهيرنا من نجاسة الخطية وبتجديد قلوبنـــا لكـــي نكون مشابهين لصورته.

فإنّ النفس إذ يتخللها شعاع يسير من مجد الله، وقبس ضئيل مـــن طـــهارة المسيح، يتضح لها في ألمٍ ما بها من لوثة ودنـــس، وتنكشـــف لـــها نقـــائص الصفات البشرية واعوجاجها، وتتبين ما هي عليه من فساد في الميول وجحـود في القلب ونجاسة الشفاه، وهكذا يعرض أمام عيني الخاطيء ما قد قام به مـــن أعمال الخيانة، بنقضه ناموس الله، وتعطيل أحكام الشريعة، مما يجعله في حالة ألم وانسحاق تحت تأثير روح الله الفاحص القلوب، وإذ تتجلى صفات المســـيح الطاهرة النقية لمثل هذا الخاطيء فإنه يمقت نفسَه ويكرهها.

إنّ دانيال حين رأى الرسول السماوي، وشهد ما حفّه من المجد والبهاء، بدأ يتملّكه شعور قوي وإحساس جارف بأنّه إنسان ناقص ومخلوق ضعيف، وقد وصف هذا المنظر العجيب فقال: «ولم تبق فيَّ قوة، ونضارتي تحولت فيَّ إلى فساد، ولم أضبط قوة» دانيال١٠:٨، فإن النفس التي يمسّها الروح على هذا النحو لا بدّ من أنها تكره الأنانية، وتعاف محبة الذات، وتنشدُ، بواسطة برّ المسيح، حياةَ الطهارة التي توائمُ شريعةَ الله، وتتفق مع أوصاف المسيح وسجاياه.

وكذلك الرسول بولس فإنه قال عن أعماله الظاهرية وسيرته الخارجية: «من جهة البرّ الذي في الناموس بلا لوم» فيلبي٣:٦، ولكنّه عندما تبين طبيعة الناموس الروحية، رأى نفسه خاطئا، فهو إذ طابق الناموسَ على حياته مطابقة حرفية ظاهرية، كما يفعل الناس، رأى نفسَه بلا لوم، ولكنّه حينما تأمّل في عمق الشريعة المقدّسة رأى نفسَه كما رآه الله، فانحنى خجلا واتضاعا واعترف بإثمه وذنبه قائلا: «أما أنا فكنت بدون الناموس عائشا قبلا، ولكن لما جاءت الوصية عاشت الخطية فمتُّ أنا» رومية٧:٩، وهكذا عندما عرف روحانية الناموس ظهرت له شناعة الخطية وبشاعتها، وزايله كل ما كان في نفسه من زهو وافتخار.

فالله تعالى، وإن كان يرى الذنوب تتفاوت في جسامتها، لا يستصغر خطية ما، مهما صغرت في أعين الناس، لأنّ حكم الإنسان حكم جزئي ناقص وأمّا الله فيقدّر الامور على حقيقتها، فالناس يحتقرون السكير مثلا وينذرونه بسوء المغبة والمصير، في حين أنهم يتغاضون عن زجر أهل الكبرياء والأنانية والطمع، وهي الخطايا التي يمقتها الله بنوعٍ خاص، لأنها تنافي طبيعته السمحة

وتضاد المحبّة الخالصة التي تكوّن جوّ العالم الذي لم تصل إليه الخطيـــة، فقـــد يشعر مرتكب إحدى الخطايا الجسيمة بالخزى والعار، ويحس بافتقاره إلى الـــبرّ واحتياجه إلى المسيح، ولكن المتكبّر لا يشعر بحاجة ما، فتحول كبرياؤه دونـــه ودون المسيح وتحرمه من بركات الخلاص التي جاء يسوع لكي يمنحه إياها.

فإنّ ذلك العشار المسكين الذي صلّى قـــائلا: «ارحمنـــي أنـــا الخـــاطيء» لوقا١٨:١٣، اعتبرَ نفسَه شريراً أثيما، وهكذا كان يراه غيرُه أيضا، ولكنّه شعر بحـــاجته، فجاء بذنبه وعاره إلى الله، ملتمسا رحمتَـــه تعـــالى، وفتـــح قلبـــه لتأثيرات روح الله القدوس كيما يجدده ويغيرّه، وسلّم نفسه للنعمة القـــادرة أن تخلصه وتحرره، وأما الفرّيسي فكانت صلاتُه مملوءةً بروح الزهو والافتخـــار، مما دلّ على أنّ قلبه كان مغلقا دون تأثير الروح القدس فإنه بسبب ابتعاده عن الله لم يستطع أن يشعر بنجاستِه وإذ لم يشعر بحاجته مضى دون أن ينال شيئا.

وإذا تبيّنتَ ما أنت عليه من إثمٍ وخطية، فلا تنتظر ريثما تُصلح ذاتَك، وكـــم من الناس يظنّون أنهم ليسوا أهلا لأن يأتوا إلى المســـيح. ألعلّـــك تحـــاول أن تصلح نفسَك باجتهاد؟ و«هل يغيرّ الكوشي جلدّه أو النمر رقطه، فـــأنتم أيضـــا تقدرون أن تصنعوا خيرا أيها المتعلمون الشر» ارميا١٣:٢٣، فإنمـــا معونتنـــا هي من الله فقط، فيجب ألا نتطلع إلى فرص أفضل، ويجب ألاّ ننتظر حتى نصير أحسن تطبّعا وتخلّقا، أو أشد اقتناعا وتوثقا، فإننا من أنفســـنا لا نســـتطيع أن نفعل شيئا، بل يجب أن نأتي إلى المسيح كما نحن.

فلا يخدعن أحد نفسه ويحسب أن الله من فرط محبته وكرم رحمته سيخلّص أخيرا حتى رافضي نعمته. إنّ الخطية لمرض عضال، لا يدرك استحالة الـــبُرءِ

منه إلا من نظر إليه في نور الصليب، فعلى الذين يتكلون على رحمة المولى ويقولون إنّه تعالى من جوده لا يهلك الخاطيء، أن يتأملوا مليّا في جلجثة، فلأنّ المسيح لم يجد سبيلا لخلاص الإنسان من قوة الخطية ونجاستها ولم يكن في إمكانه أن يعيد له الحياة الروحية، فالشركة مع القديسين، إلا بهذه التضحية العظمى، أخذ جرم الخطية على نفسه ومات عوضا عن الخاطيء فتشهد محبةَ ابن الله وتخبر تضحيتُه العظمى بفداحةِ الخطية، وتعلنان أنّ لا امل بالنجاة منها ومن سلطانها، ولا رجاءَ بالحصول على حياةٍ أبديةٍ إلا بخضوع النفس للمخلّص يسوع خضوعا كاملا.

ويحاول أحيانا الذين يصرون على خطاياهم، أن يبرروا أنفسهم بقولهم: «نحن مثل اولئك القوم الذين يُدعون مسيحيين، فإنهم ليسوا بأفضل منا تضحية ونكرانا لذواتهم، وليسوا بأكثرَ منا حذرا وتعقلا، بل هم مثلنا يحبّون اللهو والتدلل» وهكذا يتعللون بأخطاء الآخرين، ممن يدعون مسيحيين، ولكن خطايا الآخرين ونقائصهم لا يمكن أن تبرر إنسانا لأن الله لم يعطنا مثالا بشريا ناقصا، وإنما أعطانا ابنه القدوس لكي نتمثل به، فأولئك الذين ينعون على المسيحيين سلوكهم الخاطيء، هم جديرون بأن يُظهروا في حياتهم سلوكا أفضل، ومثلا أسمى وأنبل، لأنه إذا كانت لديهم فكرة سامية كهذه، بشأن ما يجب أن تكون عليه حياة المسيحي، أفلا تكون خطيتهم أكبر وأعظم، بلى، لأنهم عرفوا الحق ولم يتبعوه.

وحذار من أن تؤجّل أو تسوّف الإقلاع عن خطاياك، بل عليك أن تبادر إلى طلب تطهير قلبك بواسطة يسوع، فقد أخطأ هذه الحقيقة كثيرون، فحلّت بهم الخسارة الأبدية، ولست أطيل الكلام في هذا المقام عن قصر الحياة وعدم

تحققنا من نهايتها، فللتأجيل خطر أشد وأدهى مما نتصور، لا يفطن إليه النـاس كثيرا، وهو أننا بركوننا إلى التأجيل، نرفض توسلات روح الله القدوس، ونؤثـر أن نبقى في الخطية على أن نسلم أنفسنا لله، فمن هنا يتأتّى الخطر، ذلـك لأن التساهل مع الخطية، مهما بدت لنا صغيرةً، يعرضنا لخسارة لا حدّ لها، فنحـن إن لم نقهرها، قهرتنا وأفضت بنا إلى الهلاك.

كان كلُّ من آدم وحواء يقنع نفسَه، بأن أمرا يسيرا كالأكل مـن الشـجرة المنهيّ عنها لا يمكن أن تترتب عليه نتائج مروّعة وعواقب وخيمـة، كـالتي حذرهم منها الله، ولكنّ هذا الشيء اليسير إنما كان اعتداءً على نـاموس الله، ذلك الناموس الثابت المقـدس، وقد أدى هذا الاعتداء إلى فصل الإنسان عـن الله، وتدفّق عواملِ الموتِ والشقاء إلى هذا العالم بكيفية تفوق كلّ وصف، ومنذ ذاك الحين أخذت صيحات الحزن والعويل، تتصاعد من جيل إلى جيل، وصـارت الخليقة كلّها تئن وتتمخّض، نتيجة لتمرّد الإنسان وعصيانـه، ولقـد شـعرت السماء نفسَها بنتائج عصيانِ الإنسان، وشقِّه عصا الطاعة على الله تعالى، وإنّ جلجثة لتذكّرنا دائما بتلك التضحية العجيبة التي اقتضاها التكفير عن الاعتـداء على ناموس الله، فيجب ألا ننظر إلى الخطية كأنها أمر تافه وهيّن، فإنّ كل مـا نأتيه من أعمالِ التعدي، وكلّ ما نبديه من إهمالٍ أو رفضٍ لنعمة المسيح، لا بدّ من أن يكون له ردّ فعلٍ في نفوسنا، إذ تتحجّر قلوبنا، وتنحـطّ مداركنـا، فـلا نصبح فقط أقلّ ميلا لتلبية دعوة المسيح، بل نصير أيضا أقـلّ مقـدرة علـى الخضوع لروح الله القدوس، والاستجابة لتوسّلاتِه الرقيقة.

غير أنّه يوجد أناس يحاولون تهدئة ضمائرهم المضطربـة بظنّـهم أنّـهم قادرون على أن يغيروا مسلكهم الشرير متى شاؤوا، وأنّه في اسـتطاعتهم أن

يغيروا مجرى حياتهم حتى بعد استخفافهم بنداءات الرحمة، وإصرارهم على مقاومة روح الله القدوس، وحتى بعد انحيازهم إلى جانب الشيطان، ولكن هذا كلّه لا يمكن أن يتمّ بمثل هذه السهولة، إذ تكون أخلاقهم قد تكيّفت تماما، على مرّ الزمن، بما حصلوا عليه من الاختبار والتدريب، وتشكّلت بممارسة العادات والتجاريب، حتى ليتعذّر على الكثيرين منهم أن يتقبلوا سمةَ المسيح.

فإنّ اية خصلة من الخصال الخاطئة، أو اية رغبة من الرغبات الآثمة، إذا تُركت وشأنها، كافية لأن تضعف تأثير الإنجيل، وتبطل مفعوله. وإنّ كل تساهل نبديه نحو الإثم، من شأنه أن يزيد النفس إعراضا عن الله وصدودا عن الحق الإلهي، إنّما هو يحصد ما قد زرع، وليس بين دفَّتي الكتاب المقدس تحذيرُ يدعونا إلى الخوف من الاستخفاف بالشرّ مثل قوله: «الشرير تأخذه آثامه، وبحبال خطيته يمسك» امثال٥:٢٢.

إنّ المسيح على أتم استعداد لتحريرنا من الخطية، ولكنّه لا يفرض علينا ذلك جبرا وقسرا، فإذا كانت إرادتنا – بسبب إصرارنا على الخطية وتمادينا فيها – قد أصبحت تميل بكليتها إلى فعل الشر، وإذا كنا مصرّين على عدم قبول نعمته، فماذا عساه أن يفعل بنا بعد ذلك؟ فنحن إنّما نهلك أنفسنا بإصرارنا على رفض محبته، «هوذا الآن وقت مقبول، هوذا الآن يوم خلاص» « إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم» ٢كورنثوس٦:٢؛عبرانيين٣:٧و٨

«إنّ الإنسان ينظر إلى العينين وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب» ١صموئيل١٦:٧. نعم، إنّه ينظر إلى القلب البشري الذي تصطرع فيه شتّى العواطف والأحاسيس، القلب الجائل التائه، المملوء بكلّ زيفٍ ونجاسة، فيعلم

بواعثَه ونيّاتِه ومقاصده. فتوجه إليه أيها الخاطيء، واعرض أمامه نفسك بكلّ ما فيها من تلوّث وتلطخ، واكشف خفاياها أمام عينه التي ترى كلَّ شيء، واصرخ مرددا قول المرنم: «اختبرني يا الله واعرف قلبي امتحني واعرف أفكاري. وانظر إن كان فيّ طريق باطل واهدني طريقا أبديا» مزمور ١٣٩: ٢٣و٢٤.

كثيرون يقبلون الدين عقليا، ويحملون صورة التقوى، في حين أن القلب غير متجدد، فلتكن طلبتك: «قلبا نقيا اخلق فيّ يا الله وروحا مستقيما جدد في داخلي» مزمور ٥١: ١٠. ولكن كن أمينا لنفسك، باذلاً كلّ جدٍ واهتمام، وتشبّث وإصرار، كما لو كنت مشرفا على الهلاك، فهذا أمر يجب تسويته، ويجب أن يحلّ بينك وبين الله تعالى بصفة نهائية لأنّ التعلّق برجاء وهمي يكفي وحده لإهلاكنا.

وادرس كلمة الله بروح الصلاة، فإنّ فيها شريعته، وحياة المسيح، ومباديء «القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب» عبرانيين ١٢: ١٤، فضلا عن أنها تقنعنا بالخطية وتعلن لنا طريق الخلاص بوضوح وجلاء، فانتصت لها، باعتبارها صوت الله الذي يخاطب نفسك.

ومتى أدركت جسامة خطيتك، وتجلت لك نفسك على حقيقتها فلا تستسلم لليأس والقنوط – فإنما لأجل الخطاة قد جاء المسيح من السماء، فيا له من حبّ فائق عجيب! إذ أننا لا نصالح الله، بل هو الذي «كان في المسيح، مصالحا العالم لنفسه» ٢كورنثوس ٥: ١٩، فإنّ الله بحنوّ ومحبة هو الذي يستعطف أولادّه الشاردين، ليردّهم عن زيغهم وضلالهم، وليس من أبٍ بشري يتسع

صبره وحلمَه لاحتمال غلطات أولاده وأخطائهم، كما يفعل الله مع الذين يحـــاول انقاذّهم، ومن مثل الله في عطفه وحنوّه على الخاطيء الأثيم؟ وهل من شـــفاه بشرّية سكبت هذه التوسلات الرقيقة التي بها يناشد الله الإنسان الضال؟ أجـــل، إنّ كلّ مواعيدِه وتحذيراتِه إن هي إلا تنسمات محبته التي لا يُنطق بها.

عندما يأتي الشيطان ويوسوس لك أنك خاطيء، أنك خاطيء جدّا، تطلع إلى فاديك وتحدث عن استحقاقاتِه، فإن التطلع إلى نوره مما يساعدك، ثم اعـــترف بخطيتك، واجحد عدوَّ الخير، وقل له: « إنّ المسيح يســـوع جـــاء إلى العـــالم ليخلّص الخطاة»١كورنثوس١:١٥. لما سأل المسيح سمعان سؤالا فيما يختـص بمديونين كان أحدهما مدينا بمبلغ زهيد، والآخر كان مدينا بمبلغ جســـيم جـــدا ولكن السيد سامح الإثنين، فأيهما يكون أكثر حبّا لســـيده، أجاب سمعان قائلا: «اظن الذي سامحه بالأكثر» فنحن كنا من اردأ الخطاة، ولكن المسيح مات لكي نوهب الغفران، وإنّ استحقاقاتِ ذبيحته وتضحيتَه لتكفي للتشفّع فينا أمام الآب، والذين سامحهم الله بالاكثر سيحبّونه أكثر، وسيكونون أقرب الناس إلى عرشه، ليسبحوه على محبّته العظمى، وتضحيتِه التي لا حدّ لها. فإننـــا، كلمـــا ازددنـــا إدراكا لمحبة الله، تحققنا أكثرَ حقيقةَ محبته، واطّلعنا على مدى اتضاعِه ومبلـــغِ تضحيتِه، انفطرت قلوُبنا حزناً وتأسّفاً، وذابت أفئدتُنا حنّوا وتعطّفاً.

الفصل الرابع

الاعتراف

«من يكتم خطاياه لا ينجح ومن يقرّ بها ويتركها يرحم» امثال٢٨:١٣. إذن فما يشترطه الله علينا، لكي يمنحنا رحمته ويهبنا عفوه وغفرانه، سهل وعادل ومعقول، فهو لا يطلب منا أمرا يسوءنا أو يكدرنا، ولا يفرض علينا تجشّم الأسفار وركوب الأخطار لأداء حجّ أو بلوغ مزار، ولا يأمرنا بأن نقوم بأعمالٍ تقشّفية، وممارساتٍ تعذيبية، تكفيراً عما اقترفناه من تعدّ وعصيان، وإنما كلّ ما يطلبه الله منا لكي يشملنا برحمتهِ هو الاعتراف بخطايانا والإقلاع عنها.

يقول الرسول: «اعترفوا بعضُكم لبعضٍ بالزلات. وصلوا بعضُكم لأجل بعضٍ لكي تشفوا»، يعقوب٥:١٦، فلنعترف بخطايانا لله، فهو وحده قادر على أن يهبنا الغفران، ولنعترف أيضا بعضنا لبعض بالزلات، فإذا بدرت منك إساءةٌ نحو صديق لك أو جار، فمن حقّه عليك أن تقرّ له بخطئك كما أنّه من الواجب عليه هو أيضا أن يرضى ويصفح. ثم بعد ذلك عليك أن تلتمسَ عفوَ الله وغفرانه، لأنّ ذلك الأخ الذي اجترأت عليه وجرحتَه إنّما هو ملك الله، فإن أضررت به، فأنت تخطيء إلى الخالق، ومتى أتممت اعترافَك لله، وأقررت بذنبك لأخيك، فإن القضية تصبح أمام الوسيط الحقيقي، ورئيس الكهنة الأعظم الذي هو «مجرّب في كلّ شيء مثلنا، بلا خطية»، «قادر أن يرثي لضعفاتنا»، عبرانيين٤:١٥، وقادر أن يطهرنا من كل وصمة إثم. عبرانيين٧:٢٥.

اذن فأولئك الذين لم يذللوا نفوسهم أمام الله، معترفين بذنبهم لم يقوموا بعد بأول شرط من شروط قبولهم، لأننا إن كنا لم نتب إلى الله توبة لا رجعة عنها ولا انتكاص، وإن كنا لم نعترف له بخطايانا بتذلل وانكسار، ولم ننظر إلى الإثم نظرة مُقت واستنكار، فلا نكون حتى الآن قد طلبنا حقا الصفح والغفران، وإن كنا لم نطلب، فنحن لم نجد بعد سلام الله، فإنه لا يوجد سبب لعدم نيلنا غفرانا عن خطايانا الماضية سوى أننا غير راغبين في التذلل أمام الله والإذعان لكلمة الحق، فإن الله تعالى قد أعطانا تعليمات صريحةً في هذا الشأن تبين لنا أن الاعتراف بالخطايا، سواء أكان بصفة فردية أم علنية، يجب أن يصدر عن القلب، ويجب أن يعترف به الفم ويردده اللسان، لأن الاعتراف ليس مجرد لغو أو كلام يلقى جزافا، وليس هو مجرد تصريح ينتزع من صاحبه انتزاعا، دون أن يدرك جسامة خطيته، ويشعر بشدة نفوره منها واستنكاره لها، وإنما الاعتراف الصحيح الذي يجد سبيلا إلى رحمة الله وعفوه، هو الذي يصدر من أعماق النفس ويصعد من صميم القلب، كما يقول المرنم: « قريب هو الرب من المنكسري القلوب ويخلص المنسحقي الروح» مزمور ٣٤:١٨.

فالاعتراف الحقيقي هو الذي يتسم بالتحديد، ويتناول الاقرار بالخطايا على وجه التخصيص، وهذه الخطايا قد تكون من النوع الذي يجب عرضه أمام الله فقط، وقد تكون أيضا ذات صفة علنية، فيجب أن نعترف بها جهارا، ولكن في كل الحالات يجب أن يكون الاعتراف محددا ومنصبا على الاعتراف بالخطية التي ارتكبناها.

ففي زمن صموئيل ضلّ الإسرائيليون عن الله، وفقدوا إيمانهم به، وأخذوا يشكوّن في قدرته على حمايتهم، والذود عن كيانهم، والدفاع عن قضيتهم،

حتى تحوّلت قلوبهم عن الحاكم الأعظم الذي بيده مقاليد الكون بأسره رغبة منهم في أن يكون لهم ملك أسوة بمن حولهم من الأمم والشعوب، وقد تم لهم ما أرادوا ولكنهم باؤوا بالفشل والخيبة، ولم يتذوقوا طعم السلام والاستقرار حتى أتوا إلى الله واعترفوا بما اقترفوه من جحود وإنكار، إذ قالوا لصموئيل: «صلِّ عن عبيدك إلى الرب إلهك حتى لا نموت لأننا قد أضفنا إلى جميع خطايانا شرّا بطلبنا لأنفسنا ملكا» ١صموئيل١٢: ١٩، فالاسرائيليون إذ اقتنعوا بأن نكرانهم للجميل هو الذي أقصاهم عن الله، وأدّى إلى فصم عرى الشركة بينه وبينهم، لم يروا مندوحة عن تحديد اعترافهم بذكر هذه الخطية بالذات، إذ قالوا: «لأننا قد أضفنا إلى جميع خطايانا شرّا بطلبنا لأنفسنا ملكا».

غير أن الاعتراف لا يكون مقبولا عند الله، إلا إذا كان مقترنا بالتوبة والإصلاح، فيجب أن تتناول الحياة تغييرات ظاهرة، ويجب العمل على نبذ كل شيء يسيء إلى الله تعالى، ولن يتأتى كل هذا إلا نتيجة لحزن حقيقي وتوبة خالصة، واما الإصلاح الذي يتعين علينا ان نقوم به من جانبنا فقد بيَّنه النبي إشعياء جليا وواضحا في قوله: « اغتسلوا تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر، تعلمَّوا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة»، إشعياء١: ١٦و١٧، وكذلك نوَّه به حزقيال في قوله: «ان رد الشرير الرهن وعوَّض عن المغتصب، وسلك في فرائض الحياة بلا عمل اثم فانه حياة يحيا. لا يموت» حزقيال٣٣: ١٥. وأيضا فصَّله الرسول بولس في قوله: «فانه هوذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله، كم انشأ فيكم من الاجتهاد بل من الاحتجاج بل من الغيظ بل من الخوف بل من الشوق بل من الغيرة بل من الانتقام. في كل شيء أظهرتم أنفسكم أنكم أبرياء في هذا الأمر» ٢كورنثوس٧: ١١.

فالخطية متى أماتت الشعور الأدبي، تجعل فاعل الإثم لا يرى ما في صفاته من نقائص وعيوب، ولا يتحقق فداحة الشر الذي ارتكبه، فما لم يخضع لقوة الروح القدس المقنعة، يظل غير مدرك لخطيته إدراكا كاملا، وتكون اعترافاته خالية من روح الجد والإخلاص إذ يحاول عند كل اعتراف أن يلتمس لنفسه الأعذار، ناسبا أخطاءه إلى الظروف التي أحاطت به، والتي لولاها لما ارتكب مثل هذا الذنب الذي يلام عليه.

فإنّ آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة المنهيّ عنها، شعرا بالخزي والعار وأحسَّا بالرهبة والخوف، فكان جلّ همهما في مبدأ الأمر منصرفا إلى تلمّس وسيلة الاعتذار عن خطيتهما، والتخلص من حكم الموت الرهيب، فلما بدأ الله يسألهما عن الخطية التي اقترفاها، أخذ آدم ينحي باللائمة على الله تعالى وعلى المرأة، إذ قال: «المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت» تكوين٣:١٢، وكذلك المرأة بدورها أخذت تنحي اللائمة على الحية، إذ قالت: «الحية غرّتني فأكلت» تكوين٣:١٣، فكأني بحواء تعترض على الله تعالى قائلة لماذا خلقت الحية ولماذا تركتها تتسلل إلى جنة عدن؟ فهي تلقي التبعة على الله سبحانه، وتجعله مسؤولا عن زلتهما وسقطتهما، ولا عجب في ذلك فإن روح التنصّل من المسؤولية وتبرئة أنفسنا تولدت في الأصل عند ابليس الملقب بأبي الكذاب ومنه سرت إلى كل ذرية آدم وحواء، فمثل هذه الاعترافات ليست من إيحاء الروح الإلهي، وبالتالي فهي غير مقبولة البتة عند الله، أمّا التوبة الصحيحة فإنها تجعل الإنسان يحمل ذنبه بنفسه، ويقرّ به في غير خداع ونفاق، كما فعل ذلك العشَّار الذي لم يجرؤ أن يرفع وجهه نحو السماء، بل قرع على صدره وصرخ قائلا: «اللهم ارحمني أنا الخاطيء» فعاد إلى بيته

مبررا، وهكذا يتبرر كل من اعترف بذنبه لأن يسوع نفسَه يتشفَع بدمه في كل نفس تائبة.

وإنّ الأمثلة الواردة في كلمة الله بشأن التوبة الحقيقية توضح لنا روح الاعتراف الصحيح الخالي من كل تعلّل وتنصّل، وتبين لنا الإقرار الخالص الذي لا يشوبه البرّ الذاتي، فبولس، مثلا، لم يحاول قط ان يبريء نفسه مما اقترفه ضد الكنيسة، بل هو يصور خطيته كأشدّ ما تكون اسودادا وإظلاما دون أن يحاول استصغار ذنبه، إذ يقول: « وفعلت ذلك أيضا في أورشليم، فحبست في سجون كثيرين من القديسين، آخذاً السلطان من قبل رؤساء الكهنة، ولما كانوا يُقتلون ألقيت قرعة بذلك، وفي كل المجامع كنت ... أطردهم إلى المدن التي في الخارج» أعمال٢٦: ١٠و١١، بل ولم يتردد أن يقول: « صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلّص الخطاة الذين أولهم أنا» ١تيموثاوس١: ١٥.

أجل، فإنما بالتواضع والانكسار، والتوبة والاستغفار يستطيع الخاطيء أن يقدّر شيئا من محبة الله، وشيئاً مما انفق في جلجثة، فيأتي إلى الله كما يأتي إلى أبيه، معترفا بكل ذنوبه، وتائبا عن كل خطاياه، لأنه مكتوب: « إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم» ١يوحنا١: ٩.

الفصل الخامس

التسليم

بهذا وعدنا الله: «تطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم» إرميا٢٩:١٣، فإن لم نطلب الله بكل قلوبنا لا نجده، وإن لم نذعن له إذعانا كاملا لا نتغيرّ عن شكلنا لنكون مشابهين صورته ومثاله، لأننا بالطبيعة أعداء الله، وقد وصفنا الروح القدس بأننا أموات «بالذنوب والخطايا» افس٢:١، وشخَّص حالتنا فقال: «كل الرأس مريض وكل القلب سقيم ... ليس فيه صحة» إشعياء١:٥و٦، فنحن ممسكون في فخاخ إبليس مُقتنصون لإرادته،٢تيموثاوس٢:٢٦، غير أن الله تعالى يريد شفاءنا ويرغب في تحريرنا، وهما أمران يستوجبان تغييرا شاملا في صفاتِنا وتجديدا كاملا في طبيعتِنا ولا يصيران إلا بتسليم قلوبنا لله تسليما تاماً.

نعم، إنّ محاربة الأثرة فينا هي أعظم معركة دارت رحاها إطلاقا، لأن تسليم النفس لله وإخضاع المشيئة لمشيئته يستلزمان حرباً عواناً وصراعاً عنيفاً، والنفس لا تتجدد في القداسة ما لم تخضع لربِّها خضوعا مطلقا.

غير أنّ سياسة الله ليست، كما يريد أن يصورها لنا الشيطان، مؤسسة على تحكّم غاشم يتطلب منا تسليما أعمى، يناشد الله عقولنا ويهيبُ بضمائرنا إذ يدعونا قائلا، «هلم نتحاجج» إشعياء١:١٨، فهو تعالى يأبى أن نتعبّد له قسراً واضطرارا، لأن استعمال الوسائل القهرية والأساليب الجبرية لمما يعيق تقدّمنا الفكري وتحسننا الخلقي ويجعل منا آلة صمّاء، فما لغرض كهذا خلقنا الله، بل

ليسمو الإنسان الذي توَّج به عمل الخلق إلى أقصى مراتب الرقي وأسمى غايات التقدم، جاعلا أمامنا ذروة الطوبى التي نبلغُها بنعمته، وداعيا إيانا أن نبادر بتسليم أنفسنا له لكي يعمل فينا إرادته ويتمم فينا مشيئته فالأمر مفوض لنا أن نختار بين بقائنا في عبودية الخطية، وبين التمتع بحرية مجد أولاد الله بنعمته تعالى.

إن تسليم ذواتِنا لله ليستلزم حتما أن نتنحّى عن كل شيء من شأنه أن يفصلنا عنه، كما أوضح ذلك يسوع في حديثه مع تلاميذه، إذ قال: « فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر ان يكون لي تلميذا» لوقا١٤: ٣٣، فكل شيء يحوِّل القلب عن الله يجب نبذه وتركه، فالمال صنم يتعبد له كثيرون ممن يتهافتون على الثراء، ومحبة المال هي السلسلة الذهبية التي يستأسرهم الشيطان بها، وآخرون يتعبدون للشهرة والجاه العالمي، وآخرون يتعبدون لصنم الدعة والراحة والتحلل من التبعات والفرار من المسؤوليات، فكل هذه أغلال يجب تحطيمها، لأننا لا نقدر أن نجزّيء حياتنا بين الله والعالم، بل لا نكون أولادا لله حتى نسلّم أنفسنا له تسليماً تاماً، ومن الناس من يدّعون بأنهم يعبدون الله، بينما هم لا يعتمدون إلا على برّهم الذاتي، فهم يريدون أن يحفظوا الناموس، ويمارسوا حياة الفضيلة، ويحصلوا على الخلاص، بمحض اتكالهم على جهودهم الشخصية، دون أن يكون الباعث على ذلك كله محبة المسيح، فمثل هذه الديانة لا تغني فتيلا، ولكن متى حل المسيح في حياتنا، امتلأت قلوبنا بمحبته، واغتبطت نفوسنا بعشرته، فلا نلبث أن ننسى ذواتِنا، ونجعله هو مركز تفكيرنا ومحور تأملاتنا، فمن ثم تكون بواعثنا كلها مدفوعة بمحبة المسيح، لأن الذين تحصرهم محبة الله لا يعودون ينظرون إلى الحياة المسيحية كأنها فرض يؤدى أو واجب يقضى، لا يحاول ان يظفروا منها بأكبر مغنم وأقل مغرم،

بل تكون غايتهم القصوى هي التشبه بالمسيح، والعمل على مشيئته وارادته، مبدين من الاهتمام ما يتفق والغرض الذي ينشدونه، فإن الاعتراف بالمسيح إذا لم يكن صادرا عن حب عميق فإنه لا يعدو أن يكون مجرّد شقشقة لسانية، وممارسات شكلية، وحياة كلها عبودية.

افتشعر بأنه كثير عليك أن تضحي بكل شيء لأجل المسيح؟ اذن فسل نفسك: ماذا أعطى المسيح لأجلي؟ إنه بذل كل شيء لفدائِنا، ووقف علينا حبَّه وحياتَه وآلامه. أفنضنّ عليه بقلوبنا، ونحن لسنا أهلا لمحبة عظمى كهذه؟ وإنما لكوننا نتمتّع في كل لحظة من لحظات حياتنا بالاشتراك في بركاته، صرنا لا ندرك تماما عمق الجهل والبؤس اللذين أنقذنا منهما. وهل نستطيع أن نراه مطعونا بخطايانا، ثمّ نزدري محبته وتضحيته؟ وهل نستطيع أن نرى تواضعه الذي لا حدّ له ثم نتذمرّ لأنه لا سبيل إلى دخول الحياة إلا بالصراع وإذلال النفس؟

فكم من أناسٍ ذوي قلوب متكبّرة يتساءلون قائلين: وما ضرورة التذلل والاتضاع، والحزن والتوبة؟ وهل يلزم أن نمارس كل هذه الأمور حتى يؤكد الله لنا قبولنا؟ وردّاً على هذا السؤال لا يسعني إلا أن أشير إلى المسيح نفسِه الذي كان منزّها عن الخطية، فضلا عن كونه رئيس السماء، ولكنه إذ ناب عن جنسنا الأثيم «صار خطية لأجلنا» و « أحصِي مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين» إشعياء٥٣: ١٢.

ولكن ما هو هذا «الكل» المطلوب منا أن نقدمه لله؟ أنه القلب، وما هو إلا قلب ملوّث بالاثم والخطية يريد المسيح أن يطهره بدمه الزكي، ويخلصه بمحبته

الفائقة! ومع ذلك فالناس يستصعبون أن يعطوا هذا « الكل» لله، فواخجلتاه وواحسرتاه!

على أن الله تعالى لا يطلب منا أي شيء من مصلحتنا أن نستبقيه لأنفسنا، لأنه في كل ما يعمله ويجربه، إنما يضع نصب عينيه خيرَ خلائقه وصالحَ بنيه، فيا ليت أولئك الذين لم يختاروا المسيح بعد، يدركون أن لديه أشياء فضلى يريد أن يمنحهم إياها، وأنّ هذه الأشياء تفوق كثيرا ما ينشدونه هم لأنفسهم، فإن الإنسان حين يفكر ضد مشيئة الله، ويعمل ضد إرادته تعالى، إنما يسيء إلى نفسه ويجحف بصالِحه، لأن الفرح الحقيقي لا يتأتى بالسير في الطريق المحظور، والخروج على وصية الله الذي يعرف تماما كل ما يؤول لخير خلائقه، فإن طريق الإثم والتعدّي إنما ينتهي بنا إلى البؤس والتردّي.

وإنه لمن الخطأ أن نظن أنّ الله تعالى يرضى بأن يرى أولاده يتألّمون، لأن السماء جميعها يهمها إسعاد الإنسان، كما أن أبانا السماوي لا يسدّ مسالك السعادة أمام أحدٍ من خلائقه، وإنما هو يهيب بنا أن نقلعَ عن الانغماس في اللذات التي تُفضي بنا إلى اليأس والشقاء، فضلا عن أنها توصد أمامَنا باب السعادة، وتحول دون دخولِنا السماء، كذلك يسوع الفادي على استعدادٍ لأن يقبلنا كما نحن، على ما نحن عليه من ضعف ونقص وعوز، وهو لن يقتصر فقط على تطهيرنا من الخطية ومنحنا الفداء بدمه، بل هو أيضا على استعدادٍ لأن يشبعَ رغائبَ كل الذين يلبّون دعوته ويحملون نيره، إذ هو يريد أن يمنح الراحة والسلام لكل من يأتي إليه ملتمسا خبز الحياة، وإنما هو يتطلب منا أن نقوم بتلك الواجبات التي تقود خطواتِنا إلى أوج السعادة والهناء، مما يستحيلُ

بلوغه على كل من يخالف وصية الله وعلى ذلك فإن حياة البهجة الحقيقية لن تتهيأ إلا إذا تصوَّر المسيح فينا «رجاء المجد».

ولرب سائل: كيف أسلم نفسي لله؟ فأنت إذاً راغب في تسليم نفسك ولكنّك تشعر بعجزك الروحي وقصورِك الأدبي، إذ ترى نفسك مُستعبدا للشكوك المقلقة، ومستأسراً للعادات الشريرة، متشبثاً بحبال خطاياك، حتى صارت عهودك محلولة، وعزيمتك مفلولة، مما جعلك ترتاب من إخلاصك، وتشكك في إمكانية قبولك لدى الله، ومع ذلك، فيجب ألا تقنطَ أو تيأس، لأن كل ما يلزمك في مثل هذا الموقف، هو أن تفهمَ قوةَ الإرادة وتعرفها على الوجه الصحيح، فهي عبارة عن القوة الضابطة التي أوجدها الله في طبيعة الإنسان، وهي القوة التي بها نقرر وبها نختار، فيتوقف مصيرك على عمل الإرادة، وعلى حسن توجيهها واستخدامها، فان كنت عاجزا عن تجديد قلبك وتغيير عواطفك، فما أنت بعاجز عن أن تختار، وما أنت بقاصر عن أن تسلّم لله نفسك وارادتك، ومتى سلمت له ذاتك فإنه لا يلبث أن يعمل في قلبك لأن تريد وأن تعمل من أجل المسرّة، وعندئذ تصبح طبيعتك تحت سيطرة الروح، ويصبح المسيح محورَ تفكيرك، وقبلةَ عواطفك وشعورك.

ولئن تكن الرغبة في الحصول على الصلاح والقداسة هي عين الصواب، إلا أنّه يجب أن لا نقفَ في جهادنا عند حدّ الرغبة فقط، إذ أنّ كثيرين سيهلكون لأنّ كل همِّهم كان مقتصرا على التعلل بالرغبة والأمل، دون أن يسلموا أنفسهم لله، ويختاروا المسيح نصيبا لهم.

ولكنّك إذا أحسنت استخدامَ إرادتِك، وسلَّمت نفسك للمسيح، فلا بدّ مـــن أن يشمل حياتك تغييرُ كلّي، وتصبح متحالفا مع القوّات السماوية التي تفوق كـــل رياسة وسلطان، فعندئذ يمدّك الله بكل قوّة علويّة، ليحفظَـــك ويثبّتـــك، وهكـــذا بخضوعك الدائم لله، تستطيع أن تحيا حياة جديدة، حياة الإيمان العامل بالمحبة.

الفصل السادس

الإيمَان

إذا أحيا الروح القدس ضميرك أدركت شيئا من شرّ الخطية وقوّتها وجرمِها وويلاتِها، فعافتها نفسُك، لأنك شعرت بأنها قد فصلتك عن الله واستعبدتكَ بسلطانها، وكلّما حاولت أن تتحرر منها تأكدتَ عجزَك وتثبّت قصورُك، وعرفت أنّ بواعثَك دنسةٌ وقلبَك نجيسٌ وحياتَك مليئةٌ من الأثرة، مفعمةٌ بالخطية، فأصبحتَ الآن تتوق إلى الغفران وتشتاق إلى التطهير والعتق، فما عساك أن تفعل لكي تصير في وفاق مع الله وتتصف بصفاته؟

إنّ مسيس حاجتك هو إلى السلام، سلام الله الناشيء عن غفران الخطية وانسكاب المحبة في نفسك، ولا تقدر أن تشتري هذا السلام بالمال ولا تستطيع أن تناله بالعقل ولا أن تدركه بالحكمة، ومجهوداتُك تخيّب أملك في الحصول عليه، ومع ذلك هو في طاقة يدك، لأنّ الله قد وهبه لك مجاناً « بلا فضة وبلا ثمن»، إشعياء٥٥:١، كما قال أيضا «إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف» إشعياء١:١٨، وها أنت قد اعترفت بخطاياك، وتحوَّلت عنها في قلبك، وعزمت أن تسلّم نفسك لله، فاذهب إليه تعالى واطلب أن يغسلك من ذنوبك ويجعل فيك قلبا جديدا، ثم صدق أنّ الرب قد فعل هذا كلّه لأنّه وعد به، فيكون لك، وقد علَّم يسوع بهذه الحقيقة لما كان هنا على الأرض قائلا: «كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم»، مرقس١١:٢٤. شفى يسوع المرضى إذ آمنوا بقدرته فساعدهم في ما كانوا

ينظرون ليُكسبهم الثقة به في ما لم ينظروا والإيمان بقدرته على غفران الخطايا أيضا، كما صار في حادثة شفاء المفلوج مثلا، إذ قال للجمهور: « لكي تعلموا أنّ لابن الإنسان على الأرض أن يغفرَ الخطايا»، حينئذ قال للمفلوج «قم، احمل فراشك واذهب إلى بيتك»، متى٩:٦، وأيَّد البشير يوحنا هذه الحقيقة وهو يدوّن الآياتِ التي صنعها يسوع إذ قال « وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أنّ يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه»، يوحنا٢٠:٣١.

من القصص التي رواها البشراء بكل بساطة عن كيف شفى يسوع المرضى يمكننا أن نتعلّم شيئا عن الإيمان به لغفران الخطية. فلنرجع إذاً إلى المريض المضجع عند بركة بيت حسدا. كان ذلك المسكين ضعيفا جداً وقد بلغ العجز منه حداً لم يستطع عنده أن يستعمل أوصاله لمدة ثمان وثلاثين سنة، ومع ذلك أمره يسوع قائلا: «قم، احمل سريرك وامشِ»، يوحنا٥:٨، ولكنه لم يحتج بل صدَّق كلمة المسيح وآمن أنه قد شفي وفي الحال همَّ بالقيام، فقام، وأراد أن يمشي، فمشى. أطاع كلمة المسيح فأعطاه الله القدرة وبريء البرء التام.

كذلك خاطيء أنت، ولا تستطيع أن تكفِّر عن تعدياتِك السالفة، ولا تقدر أن تغيّر قلبك أو أن تقدس نفسك، ولكن قد وعدك الله بأن يصنع هذا كله لأجلك في المسيح، وأنت تؤمن بهذا وتعترف بخطاياك وتسلم ذاتك لله، وتريد أن تطيعه تعالى، فحالما تؤمن بالوعد وتصدق أن خطاياكَ قد غُفرت وقلبكَ تطهُر، يحقق الله لك مواعيده، ويعطيك القوةَ كما أعطى المسيح مريض بيتِ حسدا القوة على المشي عندما آمن انه قد شفي، فالأمر يصبح واقعا، وأنت قد شفيت، إن كنت قد آمنت.

فلا تنتظر حتى تشعر بأنك قد شفيت، بل قل أنا آمنت، وقد صار الشفاء لا لاني شعرت به، بل لأن الله قد وعد به.

قال يسوع، «كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه، فيكون لكم»، مرقس١١: ٢٤، على أن الشرط الوحيد لإتمام هذا الوعد هو أن تكون الطلبة بحسب مشيئة الله، والله يريد أن يطهّرَك من الخطية، وأن يتبنّاك أيضا ابنا له، وأن يقدّرك على حياة القداسة، فاطلب كل هذه البركات مؤمنا بأن تنالها، بل اشكر الله أنك قد نلتها.. فاطلب كل هذه البركات مؤمنا بأن تنالها، بل اشكر الله أنك قد نلتها. إنّه من حقك أن تسلّم نفسك للمسيح ليطهّرَكَ، فتقف إذ ذاك أمام الشريعة التي تعدّيت مناهيها غير خَجِلٍ وغير مُدان، لأن « لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» رومية٨: ١.

ومن الآن فصاعدا أنت لست لذاتك، لأنك اشتُريت بثمن « لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب ... بل بدمٍ كريمٍ كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح»، ١بطرس١: ١٨و١٩. بإيمانك بالله قد ولد الروح القدس حياة جديدة في قلبك، فصرت طفلا في أسرة الله الذي يحبك كما يحب ابنه يسوع.

وإذ قد سلمت نفسك ليسوع، فلا ترتد عنه ولا تبتعد، بل قل في نفسك كل يوم، «إني للمسيح، وقد سلمته ذاتي»، واطلب إليه أن يمنحك من روحه ويحفظك بنعمته، كما صرت أبنا له، بتسليمه نفسك وإيمانك به، فكذلك تحيا به، حسب قول الرسول «كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه»، كولوسي٢: ٦.

يشعر البعض بأنّهم، قبل أن يصير لهم الحق في طلب البركة، يجب أن يجتازوا امتحانا يُثبتون فيه أنهم قد أصلحوا حياتَهم، بيد أنّ الحقيقة هي أنّ لهم الحق في أن يطلبوا البركةَ الآن، بل هم، إن لم ينالوا نعمة المسيح، وإن لم يأخذوا من روحه، لا يستطيعون أن يقاوموا الشرّ، زِد على ذلك انّه يجب أن نأتي إلى المسيح كما نحن – خاطئين عاجزين محتاجين، فلنأتِ بضعفاتِنا وجهالاتِنا ونجاساتِنا، ونرتمي عند قدميه في توبةٍ خاضعين، لأنه من دواعي فخر المسيح ومجده، أن يحتضننا بذراعي محبته، ويضمّد جروحَنا وينقّي قلوبَنا.

إن الكثيرين لا ينالون الخلاص لأنهم لا يصدقون أنّ عفو المسيح يشملهم هم شخصيا، ولا يثقون بأنّ الله يقصدهم بالذات في مواعيده.بيد أنّه من حقّ كل فرد قد قام بالشروط أن يعرف ويتأكد أنّ جميع خطاياه قد غُفرت مجّانا، فإن كنت تشكّ في أنّ الله يعنيك بمواعيده، انزع عن نفسِك هذا الشكّ وآمن بأنّ مواعيد الله إنّما هي لكل مذنب تائب بالحق، بل إنّه تعالى قد أعدّ في المسيح نعماً وبركاتٍ يقدّمها لكل مؤمن محتاج بواسطة الملائكة الطائعين أمرَه، وليس من مذنبٍ قد بلغت خطيّتَه واثمّيتُه حدّاً لا يجد معه القوّةَ والطهارةَ والبرّ في المسيح الذي مات لأجله، فإنّ الفادي لفي انتظار الخاطيء الأثيم لكي ينزع هو عنه الثيابَ القذرةَ ويلبسه ثياباً مزخرفةً، فقد امرَ بحياته لا بموته.

إنّ الله لا يعاملنا كما يعامل الناس بعضُهم بعضاً، اذ أنّ أفكارَه أفكارُ رحمةٍ ومحبةٍ وشفقةٍ كما صرح بذلك قائلا: « ليترك الشريرُ طريقه ورجل الإثم افكارَه، وليتب إلى الربِّ فيرحمه، والى الهنا لأنه يكثّر الغفران» و « قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك» إشعياء٥٥:٧؛٤٤:٢٢.

«لأني لا أسرّ بموت من يموت يقول السيد الرب، فارجعوا واحيوا» حزقيال١٨:٣٢، ولكن الشيطان واقف لنا بالمرصاد ليسلب نفوسنا ثقتها بهذه التأكيدات المباركة، ويُطفي فينا كلّ بارقةٍ وكلّ بصيصٍ من الرجاء، ويحجزَ عنّا كلَّ شعاعٍ من النور، فلا تسمح له بأن يفوز بشيء مما يضمره لك، ولا تعطه اذناً صاغية، بل قل له « ان يسوع قد مات عني لكي أحيا انا، فهو إذن يحبّني ولا يشاء أن أموت، ولي أبٌ رحيمٌ في السماء، ولئن كنت قد أسأتُ إلى محبته وبذّرتُ بإسراف بركاتِه»، فإنّي «أقوم وأذهب إلى ابي واقول له يا ابي اخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقا بعد أن ادعى لك ابناً، اجعلني كأحد أجراك»، لوقا ١٥:١٨و١٩. ولا شك في أنّ الله الآب يقبل الابن الضال اذا رجع اليه، «وإذ لم يزل بعيدا رآه أبوه، فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبّله».

إنّ مثل الإبن الضال، وإن كان بالغا في اللطف والرقة، ليقصر عن وصف شفقة الله الأبوية التي لا تعرف حداً، وقد قال على لسان إرميا، « محبة أبدية احببتك»، إرميا٣١:٣، وعلى لسان هوشع « كنت أجذبهم ... بربُط المحبة»، هوشع١١:٤، فبينما الخاطيء لا يزال بعيدا عن بيت الآب يبذر أمواله في بلاد بعيدة، يتّقد قلبُ الاب شوقا اليه، وكل ما يتولّد في قلب الخاطيء من رغبة في الرجوع إلى بيت الآب إنما هو من مناجاة الروح فيه وتوسّلاته إليه ليرجع إلى قلب أبيه المحب.

ابَعْدَ هذه المواعيد الغنية السخية التي جعلها الله بين أيدينا، تدع للشك مكاناً في نفسك؟ وهل تتصور أنّ الله يُبدي صدوداً وجفاء لخاطيء تتوق نفسه إلى أن يترك خطاياه ويرجع إليه نادما تائبا. تباً لكلّ فكرة كهذه، لأنه لا شيء أضر لنفسك من مثل هذه الأوهام، فإن الآب السماوي، وإن كان يبغض الخطية، إلا

أنّه يحب الخاطيء، ولذلك بذل نفسه في شخص المسيح لكي يخلّص كل من اراد الخلاص، ويمنحه الطوبى في ملكوت المجد، وهل من لغة تعبر عن محبته أرق وأقوى من قوله، «هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابنَ بطنها، حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك»، إشعياء٤٩:١٥.

فانتصب يا من عراك الشك والخوف، فإن يسوع حيّ ليشفع فيك، واشكر الله الذي بذل ابنه الحبيب لأجلك، وتوسل إليه ان لا يكون موتُه عنك عبثا، فإن الروح يدعوك اليوم مناشدا إياك أن تأتي بكل قلبك إلى يسوع، وتطلب إليه أن يمنحك هباتِه وبركاتِه.

وإذ تقرأ المواعيد فاذكر أنها تعبّر عن رحمة وشفقة لا توصفان، فإنّ قلب تلك المحبة العجيبة ليحنو على الخاطيء ويحوطه بكل عوامل الرأفة والحنان، ونحن قد صار «فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا» افسس١:٧، ولم يبقَ عليك إلا أن تؤمن بأنّ الله هو عونك وقوتك، وهو يريد أن يستعيد صورته الأدبية في الإنسان، فكلما اقتربت منه بالاعتراف والتوبة، اقترب هو أيضا منك بالرحمة والغفران.

الفصل السابع

الطاعَة

«اذاً، ان كان احد في المسيح فهو خليقة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدا» ٢كورنثوس٥:١٧.

قد لا يستطيع شخص أن يعرف تماما الوقت الذي بدأ فيه أن يتجدد، وقد لا يستطيع أيضا أن يحدد المكان أو الأحوال التي لابست عملية التجديد ولكن هذا لا يعني أنه غير متجدد، فقد قال المسيح لنيقوديموس، « الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح» يوحنا٣:٨، وكما أن الريح لا تُرى بالعين بل تُعرف بتأثيرها وقوتها، فكذلك عمل روح الله في قلب الإنسان، فهذه القوة المجددة، التي لا يمكن أن تُرى بالعين البشرية، تُولّد في النفس حياة روحية، وتجعل من الإنسان مخلوقا جديدا على صورة الله، وفيما يكون الروح في الداخل سرّياً خفيّاً، إذا بتأثيره في الحياة الخارجية يبدو ظاهراً جلياً، وكل تجديد يتمّ في قلب الإنسان بفعل الروح القدس، تتجلّى آثارُه للعيان، فلئن كان عمل الروح فينا غير منظور إلا أنّ حياتنا تنبيء به، وأعمالنَا تدلّ عليه، واذا حل في قلوبنا روح المسيح، فلا بدّ من أن يكون فرق واضح بين ما كنا عليه، وما صرنا اليه، غير أن من المصادفاتِ، صالحةً كانت أم طالحةً، لا تكشف القناعَ عن حقيقة أخلاق الإنسان، وإنما يعلنها اتجاه حياته الدائم وأعماله وكلماته المعتادة.

نعم، قد يستطيع الإنسان أن يبدو للناس في مظهرٍ لائقٍ دون أن يكون متجدداً بنعمة الله، وقد ينشيء حبَّ النفوذ والرغبة في إعجاب الغير نظاما جميلا في حياته، وقد يؤدي به الاعتداد بالذات إلى تجنّب الشرّ وشبه الشرّ، «وقد يجود البخيل»، فكيف إذن، والحالة هذه، نستطيع أن نحكم في أننا قد تجددنا أم لا؟

ولكن لمن القلب؟ وفي من نفكّر وعمّن نتحدث؟ وبمن نتعلّق حباً واشتياقا، ولأجل من نبذل أقصى الجهود؟ لأننا إن كنا للمسيح فبه نلهج واسمَه نذكرُ وله نقفُ جميعَ مالنا، وإننا لنشتاقُ إذ ذاك إلى أن نكون مثله، ونقتفي آثارَه، ونمتليء من روحه، ونطلب رضاه في كل شيء.

فكل الذين يصيرون في المسيح خليقة جديدة يظهرون في حياتهم أثمار الروح التي هي، «محبة، فرح، سلام، طول اناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف»، غلاطية٥:٢٢و٢٣، فلا يعودون يسلكون حسبَ شهواتِهم السابقة، بل بإيمان ابن الله يتبعون خطواتِه، ويحملون صفاتِه وسجاياه، ويطهرون أنفسهم كما هو طاهر، حتى لقد تراهم، فإذا هم يحبّون ما كانوا يكرهون، ويكرهون ما كانوا يحبّون، فالداعر الفاجر تراه وإذا هو قدّيس طاهر، والمتكبّر الفخور تراه فإذا هو متواضع شكور، ومدمنُ الخمرِ تراه فإذا هو قد طرح الشرَّ جانبا، وحوّل اهتمامُه إلى إنسان «القلب الخفي»، و «زينة الروح الوديع الهاديء الذي هو قدام الله كثير الثمن»، ا بطرس٣:٣و٤.

فليس من دليل على التوبة الصحيحة، إلا اذا شمل الحياة كلّها تغيير فعلي وإصلاح حقيقي، فاذا قام الخاطيء برد ما ارتهنه، وتعويض ما استبله

والاعتراف بما اقترافه وارتكبه، واظهر محبته لله، ولأخيه الإنسان، ليعلم أنه قد انتقل من الموت إلى الحياة.

وعندما نأتي إلى المسيح ، كخطاة وأثمة ، ونحظى بنعمة الغفران، تنفجر في قلوبنا ينابيع المحبة، فيصبح نيره هيناً، وحمله خفيفا، ويصير الواجب لذة، وتصبح التضحية غبطة ومسرة، ونرى الطريق الذي كان يبدو لنا مظلماً مخيفاً فاذا هو قد اصبح مزدانا بشمس البرّ، ومغموراً بأشعتها الجميلة.

يتجلّى في طباع المسيح سمو صفاته وكمال سجاياه، فهو سر بأن يفعل مشيئة الله، ولذلك ملكت حياته المحبة لله والغيرة على مجده، بل زانت المحبة جميع أعماله وحلّت في كل تصرفاته، وليست المحبة إلا من الله، فلا يستطيع قلب الخاطيء أن ينشئها ولا أن يحويها، إنما هي تسود فقط في القلب الذي يملك فيه يسوع، فنحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولا، والمحبة مبدأ العمل في كل متجدد بنعمة الله، تلطف سجاياه، وتقمع أهواءهَ، وتملك براءته وتستأصل عداوتِه، وترقق عواطفَه، فهذه المحبة، إن عززتها النفس، تزين الحياة وتؤثر تأثيرا جميلا في كل من يراها.

يتعرض أولاد الله، ولا سيما حديثو الإيمان منهم، لغلطتين يجب ان يكونوا على حذر منهما، أولاهما، وقد تقدّم الكلام فيها، غلطة الاعتماد على جهودهم ظناً منهم أنهم يصيرون على وئام مع الله بأعمالهم، والحقيقة هي أن الذي يطلب أن يتقدس بحفظ ناموس الله يطلب المستحيل، فالأعمال التي يقوم بها

الإنسان بدون المسيح تتلوَّث بالأثرة والخطية، لأن التقديس إنما هو بالإيمـــان بنعمة المسيح وحدها.

وأما الغلطة الثانية فهي نقيضة الأولى، ولا تقل عنها خطرا، وهـــي زعـم بعضهم أن الإيمان بالمسيح قد حرر المـــؤمن من واجب الطاعة لنـــاموس الله، وأنه ليس للأعمال شأن في الفداء لأن الإنسان يصير شريكا في نعمة المســـيح بالإيمان فقط.

ولكنّ الطاعة هنا ليست مجرّد اذعان، ظاهري، بل هي خدمة المحبّة، فـــإن ناموس الله يعبُر عن صفات الله، وقد تجسّم في هذا الناموس مبـــدأ المحبـــة، ولذلك هو أساس حكم الله في السماء وعلى الأرض، فاذا كانت قلوبنا قد تجددت على صورة الله واستقرت المحبة الإلهّية في النفس، أفلا يتمثل ناموســـه فـــي حياتنا؟ ومتى ساد مبدا المحبة في القلب وتجدد الإنسان حسب صورة خالقه فقد تم الوعد الذي جاء في العهد الجديد القائل: « أجعل نواميســـي فـــي قلوبـــهم وأكتبها في أذهانهم»، عبرانيين١٠:١٦. واذا كان النـــاموس مســـطورا علـــى القلب أفلا يكيّف الحياة؟ فالطاعة المبنية على خدمة المحبّة والولاء، هي علامة التلمذة الحقيقية الفارقة. لذلك يقول الكتاب « فإن هذه هي محبة الله أن نحفـــظ وصاياه»،١يوحنا٥:٣ « من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فـــهو كـــاذب وليس الحق فيه» ١يوحنا٢:٤. فالإيمان اذن لا يحـــرر الإنســـان مـــن واجـــب الطاعة، بل بالحري هو الإيمان والإيمان وحده الذي يجعله شريكا في النعمـــة التي تقدره على تقديم الطاعة الكاملة.

على أنّ الخلاص لا يصير حقا لنا بالطاعة، إنما الخلاص هبة مجانية نتقبله من الله بالإيمان، وما الطاعة إلا ثمرةَ الإيمان لذلك يقول الرسول: «تعلمون أن ذلك أُظهِر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية، كل من يثبت فيه لا يخطيء، كل من يخطيء لم يبصره ولا عرفه»، ١يوحنا٣:٥و٦. فالطاعة إذن هي العلامة الفارقة، لأن الذي يثبت في المسيح وتملك المحبة في قلبه تكون أميالـه وأعماله مطابقة لإرادة الله المعلنة في وصايا شريعته المقدسة، «أيها الاولاد، لا يضلكم أحد، من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار»، ١يوحنا٣:٧، وأما مقياس البرّ فهو ناموس الله الذي أنزله على جبل سيناء.

إذاً، فالإيمان المزعوم الذي يحرر الناس من التزامات الطاعة لناموس الله، ليس هو في الحقيقة إيمانا، بل تصلّفا وتطاولا، وصحيح أنّ الرسول بولس يقول: إننا «بالنعمة مخلصون بالإيمان» افسس٢:٨، ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أنّ «الايمان ايضا ان لم يكن له أعمال ميِّت في ذاته» يعقوب٢:١٧، ولقد أكد يسوع نفسه وجوب الطاعة للناموس إذ قال عن نفسه قبل مجيئه إلى هذه الأرض، «أن افعل مشيئتك يا الهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي»، مزمور٤٠:٨. وقال أيضا قبل صعوده «أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته» يوحنا١٥:١٠، وكذلك يقول الروح القدس على لسان يوحنا « بهذا نعرف أننا قد عرفناه، ان حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحق فيه ... من قال انه ثابت فيه ينبغي انه كما سلك ذاك، هكذا يسلك هو أيضا»، ١يوحنا٢:٣-٦، وقوله على لسان الرسول بطرس «فان المسيح أيضا تألم لاجلنا، تاركا لنا مثالا لكي تتبعوا خطواته»، ١بطرس٢:٢١.

يتبين من هذا أنّ الطاعة الكاملة للناموس الإلهي، لا تزال هي شرط التمتّع بالحياة الأبدية، كما كانت في عهد أبوينا الأولين، وهما في جنة عدن، لأنه لو كان شرط آخر للحصول على الحياة الأبدية، دون الطاعة الكاملة لله، لظلّ باب الخطية مفتوحا على الدوام تتدفق منه سيولُ البؤس والشقاء، مما يقضي على سعادة الكون بأسره.

لقد كان في مقدور آدم، قبل السقوط، أن يصوغ سجايا بارّة بالطاعة لناموس الله، ولكنّه عصى فسقط، وبخطيته سقطنا نحن أيضا، ولا نستطيع أن نغيّر طبيعتنا فنصير أبرار، ولا يمكننا، ونحن نجسون، أن نؤدي الطاعة الكاملة لناموس مقدس، وليس لنا برّ ذاتي به نوفي مطاليب العدالة الحقة، ولكن المسيح قد فتح لنا باب النجاة اذ قد عاش على الأرض فتعرَّض لكل ما نتعوض له نحن من تجارب الحياة وشدائدها، وانتصر، فقد عاش بلا خطية ثم مات لأجلنا، وهو مستعد لأن يحمل عنا خطايانا ويهبنا برّه، فاذا أنت سلّمته نفسَك وقبلته فاديا ومخلصا لك حُسبتَ باراً كأنك لم تخطيء قط، إذ أنّ صفاتِه قد حُسبتَ لك فصارت صفاتَك.

وفضلا عن ذلك، فإن المسيح يغيرّ القلب ويحلّ فيه بالإيمان، فعليك أن تحتفظ بصلتك بالمسيح، بالإيمان، وتعمل على إخضاع إرادتك له إخضاعا مستمرا، وما دمت تفعل ذلك، فإنه يعمل فيك أن تريد وأن تعمل من أجل المسرة، حتى تستطيع أن تقول، « فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي احبني، وأسلم نفسه لأجلي»، غلاطية٢:٢٠، ولذلك قال المسيح لتلاميذه، «لان لستم انتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم

فيكم»، متى١٠: ٢٠، واذ يكون المسيح عاملا فيك، نستطيع أن تظهر روحه، وأن تعمل أعماله، أعمال البرّ الفضلى التي هي الطاعة المثلى.

وإذن، فليس لنا في أنفسنا ما يحملنا على التفاخر، أو يسوِّغ لنا التعاظم لأنّ أساس رجائِنا، إنّما هو برّ المسيح المحسوب لنا وما يعمله الروح فينا وبنا.

وإذ نتكلم عن الإيمان يجب أن يكون في فكرنا التمييز بين الإيمان الحقيقي ومجرّد التصديق لأن الشيطان نفسه لا يستطيع أن ينكر وجود الله، ولا أن يتجاهل قدرتَه أو يكذّب صدقَ أقواله، كما أثبت ذلك الرسول يعقوب في قوله: «الشياطين يؤمنون ويقشعرون» يعقوب٢: ١٩. إلا أنّ إيمان الشياطين ليس إيمانا للخلاص اذ ليس فيه خضوع لإرادة الله، وأما الإيمان الذي يحدو الإنسان على تسليم قلبه لله والاتكال عليه فهو الإيمان الصحيح، « الايمان العامل بالمحبة» الذي يجدد في صاحبه صورة الله حتى أنّ القلب، الذي في حالة عدم تجدده ليس خاضعا لناموس الله، لأنه أيضا لا يستطيع، أصبح يبتهج بالشريعة قائلا مع المرنم « كم أحببت شريعتك، اليوم كله هي لهجي» مزمور١١٩: ٩٧، وهكذا «يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» رومية٨: ١و٤.

وبين المؤمنين قوم يعرفون محبة المسيح الصفوح ويرغبون في أن يكونوا أولادا لله، غير أنهم يشعرون بأن حياتهم مليئة بالنقائص والعيوب مما يحملهم على الارتياب من أنهم تجددوا بالروح القدس، فلأمثال هؤلاء أقول، لماذا التخاذل؟ لأننا كثيرا ما نلتزم بعد قبولنا المسيح أن نبادر إليه ونرتمي عند قدميه معترفين بدموع سخية بخطايانا وتقصيراتنا، ولكن علينا أن لا نيأس، لأنّ

الله، وإن كان العدو قد غلبنا، لا يرفضنا ولا يهملنا ولا يتركنا، فالمسيح عن يمين الآب يشفع فينا، وقد قال يوحنا الحبيب في هذا « يا أولادي اكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا، وان اخطأ احد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار» ١يوحنا٢:١. لنذكر أيضا كلمات يسوع، « الآب نفسه يحبكم» يوحنا١٦:٢٧، وهو أن يردك اليه ويطبع على حياتك صورته وقداسته، فاذا كنت تسلم نفسك له لا بد من أن يكمل العمل الصالح الذي ابتدأه فيك، فلنصِّل بأكثر لجاجة ولنؤمن إيمانا راسخا، وكلما شعرنا بضعفنا فلنزد ثقة بقدرة الفادي ولنرتجِ الله لأننا بعد نحمده خلاص وجهنا والهنا. مزمور٤٣:٥.

إننا، كلما دنونا من يسوع، ازددنا شعورا بما فينا من نقائص وعيوب، إذ نرى أنفسنّا على حقيقتها في ضوء الكمال الإلهي، وما الشعور بالنقص إلا الدليل على أن القلب قد بدأ يزايله الغرور، وأن الضمير قد بدا يستيقظ من سباته ويبعث من موته، بفعل الروح القدس.

ولن تتأصل في قلوبنا محبة يسوع، ما لم نتحقق من إثميتنا، وندرك خطأنا، ولن نعجب بكمال الله وجماله، ما لم تكن قلوبنا متحدة بنعمته. فإن كنا لم نرّ بعد نقصَنا الروحي، ولم ندرك ضعفنا الأدبي، فما ذلك إلا الدليل البين على أننا لم نعرف المسيح بعد، ولم نجتلِ محاسنَه ومزاياه.

فكلما قلّ تقديرنا لأنفسنا، ازداد تقديرنا لطهارة المخلّص وجماله اللذين لا حد لهما، وإننا اذ ندرك خطأنا واثميتنا، نلجأ إلى ذاك الذي يستطيع أن يعفو ويصفح، وإذ نشعر بقصورنا وعجزنا، فإنه لا يني عن إعلان ذاته بقوة، وكلما

شعرنا بالحاجة إليه وإلى كلمته، تجلّت لنا بأكثر وضـــوح، صفاتُــه الجليلــة، وانطبعت في قلوبنا صورتُه الجميلة.

الفصل الثامن

النمُـو

يُسمّي الكتاب المقدس تغيير القلب – التغيير الذي بـــه نصـير أولاد الله – ولادةً، ويُشبّه أيضا بروض الزرع الجيد الذي بذره الفلاح في حقلـه، ويحـض الذين تجددوا على أن ينموا «كأطفال مولودين الآن» إلى أن يبلغـوا «قيـاس قامة ملء المسيح»، ١بطرس٢:٢؛ افسس٤:١٣، وأن يثبتـوا ويثمـروا مثـل الزرع لأنهم «أشجار البرّ غرس الرب للتمجيد»، إشـعياء٦١:٣، فمـن هـذه الأمثلة المستمدة من الحياة الطبيعية نستطيع أن نقف على بعض أسرار الحيـاة الروحية.

وليس في إمكان الإنسان مهما أحرز من الحكمة والمهارة أن ينشيء حيـاة في نبات أو حيوان، لأن مصدر الحياة هو الله، وبه وحده يحيا كل حي، وكذلـك أيضا في العالم الروحي، لا تتولد حياة روحية في قلب الإنســان إلا بفعـل الله، وإن لم يولد الإنسان «من فوق» لا يستطيع أن يكون شريكا في الحيـاة التـي جاء يسوع ليهبها للعالم.

وشأن الحياة هو شأن النمو بالذات، فالذي يجعل البرعم زهراً ويحول الزهر أثمارا هو الله الذي بقوته يجعل البذر «أولا نباتاً ثم سنبلا ثم قمحا مـلآن فـي السنبل»، مرقس٤:٢٨، وقال هوشع النبي عـن شـعب الله إنّـهم يزهـرون كالسوسن و «يحيون حنطة ويزهرون كجفنـة»، هـوشع١٤:٥و٧، ويأمرنـا

يسوع أن نتأمل «الزنابق كيف تنمو» لوقا١٢: ٢٧، فإن النبـــات والزهــور لا تنمو باهتمامها، ولا تزهو بعنائها وكدها، ولكنّها تنمو إذ تتقبل من الله ما أعـده لنموها، والولد لا يستطيع بقوته واجتهاده أن يزيد على قامته ذراعا، وكذلـــك في الحياة الروحية، لا تستطيع أنت أن تنمو باجتهادك ومجهودك، بل كمـــا أنّ الولد والنبات ينميان كلاهما بأخذهما من المحيط ما يخدم حياتَهما – كالــــهواء النقي وضوء الشمس والطعام – هكذا تنمو أنت أيضا بقبولك المسيحَ شـــمسَ البرّ، والنور الأبدي، فإنه «لإسرائيل كالندى» «ينزل مثل المطر على الجـــزاز ومثل الغــيوث الذارفة على الأرض»، هوشع ١٤: ٥؛ مزمور٧٢: ٦، وهو أيضا «الماء الحي» و «خبز الله» «النازل من الســـماء الواهــب حيــاة للعــالم»، يوحنا٦: ٣٣.

فالله إذ أعطى ابنه يسوع المسيح قد أحاط العالم بجو من النعمة كما يحيــط الهواء الكرة الارضية، وكل من يختار أن يستنشق هواء هذا الجو المنعش يحيا وينمو إلى قياس قامة ملء المسيح.

وكما تتجه الزهور نحو الشمس لتستمدّ من أشعتها مـــا يجملــها ويكمــل تنسيقها هكذا يجب أن نتجه صوبَ شمسِ برّ المسيح الذي يضيء علينا بنـــوره من السماء فننمو في حياتنا الروحية حتى نصير مشابهين لصورته.

وهذا عين ما علَّم به يسوع في قوله: «اثبتوا في وأنا فيكم، كما أنّ الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته، إن لم يثبت في الكرمة كذلك أنتم أيضـــا إن لــم تثبتوا في ... الذي يثبت في ... هذا يأتي بثمر كثير لأنكم بدوني لا تقــدرون ان تفعلوا شيئا» يوحنا١٥: ٤و٥، فحاجة الغصن إلى اصل الشجرة لكي ينمو ويثمر

هي حاجتك إلى المسيح لكي تحيا حياة البرّ، إذ لا حياة لك إذا انفصلت عنه، ولا قوة لك على مقاومة التجارب والنموّ في النعمة والقداسة، ولكن إذا ثبتَّ فيه تكون مثل شجرة مغروسة على مجاري المياه، أوراقها لا تذبل ولا تكون عقيمة، بل تزهو وتثمر دائما.

غير أنّ الكثيرين يتصورون أنّ عليهم وحدهم أن يقوموا بقسط وافر من عمل النمو فقد قبلوا من المسيح غفران الخطية مجانا، ولذلك يحسبون أن حاجتهم إنما هي أن يعيشوا باستقامة وكمال، وأما كل محاولة كهذه فمصيرها إلى الإخفاق والفشل، كما قال المسيح « بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئا»، فنمونا في النعمة يتوقف كله على اتحادنا بيسوع، ولا يتسنى لنا أن ننمو في النعمة إلا بمحادثتنا يسوع كل ساعة والثبوت فيه كل دقيقة، فالمسيحية هي المسيح أولا وآخرا ودائما وأبدا، إذ يجب أن يكون معنا في اول الطريق وفي نهايتها، بل في كل خطوة منها، وإلا فنصيبنا الفشل، كما قال داود في ذلك «جعلت الرب أمامي في كل حين، لانه عن يميني فلا أتزعزع»، مزمور١٦: ٨.

أتسأل، «كيف أثبت في المسيح؟» إنك تثبت فيه بالكيفية نفسها التي بها قبلته أولا، وهاك ما كتبه الرسول بولس في هذا المعنى « كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه»، كولوسي٢: ٦، « أما البار فبالإيمان يحي» عبرانيين١٠: ٣٨، فقد سلمت نفسك تسليما تاما لخدمة الله وطاعته، وقبلت يسوع مخلصا لك، ولم يكن في مقدورك أن تكفِّر عن خطاياك ولا أن تغيّر قلبك، ولكنك حين سلمته، تعالى، نفسَك آمنت بأنه أنعم عليك بهذا كله في المسيح، فبالإيمان إذن صرت للمسيح، وبالإيمان يتسنّى لك أن تثبت فيه، إنه لأخذ

وعطاء، أنت تعطيه الكل: قلبك وأرادتك وخدمتك، وتأخذ منه الكل: ملء البركاتِ وحلولَ المسيحِ في قلبك ليكون لك قوةً وبرّاً وعوناً أبدياً، فيهبك القدرة على الطاعة الكاملة.

فبكِّر إلى الله في الصباح، وسلم له نفسك جديدا، ولتكن صلاتك اليه: «يا رب إني لك بجملتي، واضع كل تدبيراتي لهذا النهار في يديك لتستخدمني كيفما تشاء، كن معي، ولتكن أعمالي اليوم أعمالك». إن هذا لفرض عليك كل يوم أن تخصص نفسك لله كل صباح لتكون له طول النهار، وسلّمه كل تدبيراتِك لتنفيذها أو لإبطالها كما تشاء عنايتُه، وهكذا تكون مسلّما حياتك لله ليصوغها ويصبها في قالب حياة يسوع فتصير مثله.

الحياة في المسيح هي حياة الراحة، وقد تكون خالية من فرط الشعور بالفرح، ولكن يجب أن يملأها السلام الدائم والثقة الثابتة إذ أنّ رجاءَك ليس في ذاتك بل في المسيح الذي يبدّل ضعفك بالقوة ويهبك عوض جهلك وعجزك الحكمةَ والبأسَ، لا تنظر إلى نفسك ولا تركّز تفكيرك في ذاتك بل تطلّع إلى المسيح، وتأمّل محبتَه وتفكر في اتضاعه فتتغير تغيّرا مطّردا حتى تصير مشابها لصورته.

قال المسيح «اثبتوا فيَّ»، ومعنى الثبوت الراحة والطمأنينة والاستقرار، ثم دعانا قائلا: «تعالوا إلي ... أنا أريحكم» متى١١:٢٨و٢٩، ولقد بيّن لنا بواسطة إشعياء أنه «بالرجوع والسكون تخلصون، بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم» إشعياء٣٠:١٥، على أنّ هذه الراحة لا تعني التواني والكسل، لأنّ المخلص في دعوته قرن الوعد بالدعوة إلى العمل اذ قال « احملوا نيري عليكم

... فتجدوا راحة لنفوسكم» متى١١: ٢٩، فبقدر ما يستريح الإنسان في المسيح يكون جدُّه ونشاطُه في العمل لأجلِه.

لكن إن كان اهتمامنا بأنفسنا فلا بد من أن نتحول عن مصدر حياتنا وقوتنا يسوع، فيبذل الشيطان إذ ذاك جهدا جهيدا مستمرا ليصرف نظرنا عن المخلص فيمنع اتحادنا به ومحادثتنا إياه، ويشغلنا بلذات العالم وهموم الحياة وارتباكاتها وبغلطات الغير أو بغلطاتنا نحن، وهكذا يسعى إلى أن يلهينا عن المسيح، فلنتنبه لئلا يخدعنا بمكائده، لأنه كثيرا ما ينجح في تحويل ذوي الضمائر الحية والرغبة الصادقة إلى التأمل في غلطاتهم وضعفاتهم أملاً منه في فصلهم عن يسوع واحراز الغلبة النهائية، فلا تهتم لنفسك ولا تستسلم للقلق والخوف من جهة خلاصك، لأن هذا كله من شأنه أن يحولك عن مصدر قوتك، بل سلّم نفسك إلى الله واتكل عليه، وليكن حديثك عن يسوع وتفكيرك فيه إلى أن يغمرك وتنسى نفسك، اطرح عنك كل شك وابعد عنك كل خوف وقل مع الرسول «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي احبني واسلم نفسه لأجلي» غلاطية٢: ٢٠، توكل على الله فإنه قادر على أن يحفظك ووديعتك، وإن فوَّضت أمرك اليه يعظم انتصارك بالذي أحبك.

لقد ربط المسيح البشرية بنفسه، باتخاذه الصورة الإنسانية، برباط حبّي لا تنفصم عراه أبدا، اللهم إلا باختيار الإنسان نفسه، لذلك تجد الشيطان دؤوبا في إغرائنا بشتى المغريات لعله يحملنا على قطع هذه الرابطة باختيارنا والانفصال عن المسيح برغبتنا، فمن ثمّ يجب أن نسهر ونجاهد ونصلّي لكيلا يستغوينا غاوٍ على أن نختار سيّداً آخر – فلنا دائما ملء الحرية أن نختار لأنفسنا ما

يحلو لنا – على أن المسيح ليحفظنا إن نحن ثبّتنا النظر فيه، فما دمنا نلتفت إليه نحن آمنون، لا يستطيع أحد أن يخطفنا من يده، وبالنظر إليه «نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح» ٢كورنثوس٣:١٨.

أجل، بهذه الوسيلة استطاع التلاميذ الأولون أن يتشبهوا بمخلصهم العزيز فهم إذ سمعوا كلماته شعروا بحاجتهم أليه فطلبوه فوجدوه فتبعوه، فرافقوه حين جلوسه إلى المائدة، ولازموه في المخدع وصحبوه إلى الحقول، وكانوا معه كالتلميذ مع المعلم يتلقن منه دروسا في قداسة الحق، وكعبد يتلقى أوامر سيده، ومع ذلك كانوا أناسا تحت الآلام مثلنا، يعقوب٥:١٧، يحاربون الخطية كما نحاربها نحن، ويحتاجون إلى نعمة ربهم لكي يحيوا حياة مقدسة.

فيوحنا الحبيب، ذلك التلميذ المحبوب، بانت عليه صورة المخلص أكمل بيان، غير أن سجاياه السامية لم تكن فطرية فيه، فقد كان مدّعيا العظمة، طموحا إلى الكرامة، متهوّرا شديد الامتعاض إذا أصابه أذى، ولكنه إذ تجلّت له صفات ذلك الإنسان الإلهي، أدرك عجزه، فقاده الإدراك إلى الإتضاع، وإنّ ما رآه يوحنا في حياة ابن الله اليومية من القوة والصبر، من القدرة والرقة، من الجلالة والوداعة، ملأ نفسه بالإعجاب والمحبّة، فارتكزت عواطفه في المسيح، وتقوَّت يوما فيوما إلى أن نسي نفسه واستغرق في حبّ سيده العظيم، فسلّم طبيعته الحادة اليه ليصبّها في قالبه، وليخلقَ فيه بالروح القدس قلباً جديداً، وليغيّر بمحبتِه صفاتِه تغييراً كاملا شاملا. إن هذه النتائج تلازم أكيدا كل اتحاد بالمسيح، فمتى حلّ المسيح في القلب ومحبّته تخضع النفس، فتسمو الأفكار إلى السماء وتعلو الرغائب إلى الله.

صعد المسيح إلى السماء ولكنّ تابعيه ما فتئوا يشعرون بحضوره معهم حضورا شخصيا يشملهم بمحبته ويرشدهم بنوره فبعد أن ذهب عنهم مخلصهُم الذي سار معهم وتحدّث اليهم وصلى لأجلهم وأحيا فيهم الرجاء وعزّى قلوبهم، نعم، بعد أن ذهب عنهم وعلى شفتيه رسالة السلام، رجع إليهم من سحابة الملائكة صدى وعدِه، «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» متى٢٨:٢٠. ذهب يسوع إلى السماء وهو بالزيّ الإنساني، وتيقّن التلاميذ أنه امام عرش الله صديقُهم ومخلصهُم، فلم يطرأ على عواطفه تغيير بل لم يزل واحدا من البشرية المتألمة يقدّم أمام الآب استحقاقَ دمه وجروحَ يديه ورجليه مظهرا أنه قد وفّى حقّ فدائِهم بالتمام، وعرفوا أنّه إنما عاد إلى السماء ليعدّ لهم منازلَ، فيأتي أيضا ويأخذهم ليكونوا معه إلى الأبد.

حين اجتمعوا معا بعد صعوده كان شوقهُم عظيما إلى الصلاة باسمه، وكانوا يجثون بكل خشوع ويرددون ذلك الوعد القائل « ان كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم، إلى الآن لم تطلبوا شيئا باسمي، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا»، يوحنا١٦:٢٣و٢٤، وما انفكّوا يرفعون يد الإيمان مرددين هذه الحجة القوية بقولهم إنّ المسيح «الذي مات بل بالحري قام أيضا، الذي هو أيضا عن يمين الله، الذي يشفع فينا» رومية٨:٣٤، حتى حلّ يوم الخمسين، فوافاهم المعزى الذي وعدهم به المخلص في قوله «انه خير لكم أن انطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» يوحنا١٦:٧، ومنذ ذلك الحين أصبح المسيح يحلّ في قلوب المؤمنين حلولا دائما، بل اصبح أقربَ منهم وأوثق صلة بهم مما كان في أيام جسده وصارت محبتُه ونعمتُه وقوتهُ اكثر تجليّا في حياة أولاده، حتى أنّ كل من رآهم تعجّب وتأكد أنهم كانوا من أتباع يسوع، أعمال٤:١٣.

ما كانه المسيح لتلاميذه الأولين، هذا يريد أن يكونه للمؤمنين به في هـــذه الايام كما يتضح ذلك من صلاته التي صلاها قائلا: « ولست أسأل مـــن أجـــل هؤلاء فقط بل من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» يوحنا١٧: ٢٠.

وقد صلى لأجلنا وابتهل إلى الله لكي نكون واحدا، كما أنه هو والآب واحـد، فقد قال المخلص عن نفسه، «لا يقدر الإبـــن أن يعمـــل مـــن نفســـه شـــيئا» يوحنا٥: ١٩، «الآب الحال في هو يعمل الأعمال» يوحنـــا١٤: ١٠، فـــإذا كـــان المسيح حالاً في قلوبنا لا بدّ من أن يعمل فينا لكـــي نريـــد وأن نعمـــل لأجـــل المسرة، فيلبي٢: ١٣، فنعمل كما عمل هو ويتجلّى فينا الروح الذي تجلى فيـــه، وهكـــذا إذ نحـــبه ونثبت فيه « ننمـــو في كـــل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح» افسس٤: ١٥.

قـــابلاً حمـــل صليبي	**اتبع الفـــادي الامين**
راضيا انكـــار نفسي	**وارتدا العـــار المهين**
فهو لي أسنى نصيب	**وهو مـــولاي الحبيب**
إن جفاني الناس طراً	**فهو لي أسنى نصيب**
فلذا أحيا هنا في الـــ	**أرض كالضيف الغريب**
راجياً بعد ارتحـــالي	**ان أرى وجه الحـــبيب**
فســـلام وخلود	**عند ذيَّاك الـــودود**
وســـرور أبدي	**فســـلام وخلـــود**

الفصل التاسع

العمَل

إنّ الله لمصدر الحياة والنور والسعادة للعالمين، تنبثق منه البركات لجميع مخلوقاته كما تنبت من الشمس أشعتها المنعشة وكما تنفجر من العين مياهها الحية، وعندما تملأ حياة الله قلب الإنسان تفيض منه حاملة المحبة والبركة للآخرين أيضا.

اغتّبط المسيح أن يفدي الإنسان الهالك وتهلل أن يرفعه إلى الله، ولم يحسب حياته ثمينة عنده لإنجاز هذا العمل، بل بذلها « واحتمل الصليب مستّهينا بالخزي» وهكذا الملائكة أيضا، فإنهم يسعون دائما في إسعاد الاخرين، وفي عملهم هذا يجدون لذة وسرورا، فالخدمة التي يحسبها كل محب لذاته بالعمل المهين له، خدمة التعساء الذين هم دونه أخلاقا ومقاما، إنما هي الخدمة التي يقوم بها ملائكة الله الأطهار، وروح المحبة الذي يقومون به بفرح وابتهاج.

متى حلت محبة المسيح في القلب تكون فيه كالمسك الذي لا تخفى رائحة بائعه بل تفوح منه فتنعش كل من يقاربه، ومتى ساد روح المسيح في القلب يكون فيه كالعين في القفر تفيض مياهها لتنعش المعيي وتولد فيه الشوق إلى الاستقاء من ينبوع الحياة الأبدية.

من مظاهر المحبة ليسوع أن يسعى المحب في النسج على منواله فيعمل عمله في إسعاد الناس، ومن خصائصها أن تبدي العطف والشفقة والمؤاساة لكل من تشمله العناية الإلهية الأبوية.

لم يعش المخلص على الأرض عيشة الدعة والراحة ولم ينهمك في خدمة نفسه، بل كانت حياته جهادا دائما ونضالا دائبا لخلاص المنكوبين الهالكين ولم يعرف من المذود إلى جلجثة إلاّ التضحية وإنكار النفس، فلم يطلب يوما العفو من واجب مضنٍ، ولم يحاول التخلص من وعثاءِ سفر، ولم يهرب من عمل شاق، إذ أنه «لم يأت ليُخدم بل ليَخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» متى٢٠:٢٨، فالخدمة كانت غاية حياته العظمى والوحيدة، وما عداها كان ثانويا ومما يستخدم في سبيل بلوغ الغاية المنشودة، ولم يكن من شيء ليشبع نفسه ويروي ظمأه كعمل مشيئة الآب، حتى أنّ حياته خلت من الأثرة ومحبة الذات خلواً تاما مطلقا.

كل من يقبل نعمة المسيح فمثْلُه يكون على استعداد للقيام بأيةِ تضحيةٍ حتى يتسنى لجميع الذين مات عنهم يسوع أن يشتركوا في قبول الهبة السماوية، وانّه يسعى أيضا إلى جعل العالم، بفضل حياته فيه، أحسنَ مما كان عليه، فمثل هذه الخدمة هي من الاثمار الطيبة التي يأتي بها المتجدد الحقيقي الذي إذ أقبلَ إلى المسيح تولدت في نفسه الرغبة في المناداة بالصديق الحميم الذي وجده وفي اعلان الحق الذي خلصه وقدسه والذي لا يمكن إخفاؤه في قلبه، لأن الذي قد لبى برّ المسيح وامتلأ قلبُه من فرح الروح لا يستطيع السكوتَ عما اختبره بعد أن ذاق وعرف «ما أطيب الرب»، كما فعل فيلبس الذي إذ وجد المسيح ذهب تواً وفتش عن نثنائيل ودعاه قائلا: « تعال وانظر» وكذلك يحاول كل

متجدد أن يعرض على الناس فضائل المسيح وأن يعرفهم بغنى العالم غير المنظور وهو في ذلك يشتاق اشتياقا عظيما إلى أن يرى الجميع فيه « حمل الله الذي يرفع خطية العالم».

لا شكّ في أن كلّ مسعى نبذله لإسعاد الآخرين يعود علينا بالبركات المضاعفة حسب قصد الله من إشراك الإنسان معه في إنجاز عمل الفداء، لأنه تعالى قد وهب للناس أن يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية وأن يعملوا، هم في دورهم، على إشراك بني جنسهم في هذه البركة. إنّ هذا لأسمى شرف وأعظم فرح يستطيع الله القدير أن يجود بهما على المخلوقات، فالذين يشاركون الله في أعمال المحبة هم اليه أقرب المقربين.

كان من الممكن أن يسندَ الله الكرازةَ بالإنجيل إلى الملائكة السماويين وأن يكِلَ إليهم أمرَ توزيع بركات المحبة، أو أن يستخدمَ وسيلةً أخرى من الوسائل المتوافرة لديه لإنجاز مقاصده، ولكنّه تعالى، اختارهم أن يكونوا هم العاملين معه ومع المسيح والملائكة ليكون لهم أيضا نصيبُ وافرُ من البركات والأفراح والرفعة التي تنجم عن هذه الخدمة الجليلة.

ومن بركات الشركة في آلام المسيح أنها تولّد في القلب الشعورَ بروح المسيح، فالتضحية في الخدمة تقوّي الإنسان على الجود والإحسان وتوثّق حلفَه مع فادي الأنام الذي افتقر وهو الغني لكي يستغنى البشر بفقرِه، وما لم يتمّ هكذا قصد الله في خلق الإنسان لا تكون الحياة بركةً لصاحبها.

إن خصصت نفسَك لعمل كل ما يريده المسيح من تلاميذه، وسعيت إلى ربح النفوس الهالكة، لا بدّ من أن تشعر بحاجة إلى اختبارٍ أنجع ومعرفةٍ أوسع،

لأنك تجوع وتعطش إلى البرّ وتتوسل إلى الله أن يقوي إيمانك ويسقيك جرعاتٍ أغزر من ينبوع الخلاص، وأما المقاومة والصعاب التي تلاقيها فإنها تقودك إلى درس كلمة الله وإلى المداومة على الصلاة فتنمو في نعمة المسيح ومعرفته وتسعد باختبارات ثمينة غنية.

إنّ التضحية في العمل لأجل الغير، التضحيةَ الخالية من الأثرة، لتُكسبُ الأخلاق عمقا وثباتا وجمالا مسيحيا، وتملأ القائم بها سلاما وسعادة، وترفع الأماني وتطهرها ولا تترك مجالا للتراخي والاهمال، لأنه من شأن الفضائل المسيحية أن تنمي قوى ممارسها وتمنحه بصيرة ثاقبة وإيمانا وطيدا متزايدا وقدرة مقتدرة في الصلاة، فالروح القدس، إذ يعزف على أوتار النفس يُخرج منها نغماً يتجاوب مع النغمة الإلهية، وأولئك الذين يقفون حياتَهم على السعي إلى نفع الآخرين إنّما هم في الواقع يعملون على خلاص أنفسهم.

على أنّ الطريقة المثلى للنمو في النعمة هي أن نشتغل بإخلاص في العمل المفروض علينا، وأن نبذلّ قصارى جهدنا لمساعدة من هم في حاجة إلى معونتنا، فإنما تتزايد قوتُنا، بالمران والعمل، لأن النشاط هو من مستلزمات الحياة وضروراتها، فأولئك الذين يسعون إلى المحافظة على الحياة المسيحية بقبولهم البركات التي تأتيهم عن طريق وسائط النعمة، دون أن يعملوا شيئا لأجل المسيح، مثلهم كمثل من يحاول أن يأكل دون أن يشتغل أو يعمل. فهذه الحالة، تأثيرها الروحي كتأثيرها الطبيعي، لأن الإنسان الذي يرفض أن يستخدم أعضاءه لا بد من أن يفقد القدرة على استعمالها، ولذلك فإن المسيحي الذي لا يستخدم القوى المعطاة له من الله لا يتوقف فقط عن النموّ بل أيضا يفقد القوة التي كانت له.

وقد جعل الله كنيسة المسيح أداة لتخليص البشر، ووكل إليها مهمةَ تبليغ الإنجيل إلى كل أنحاء العالم، فهذه المسؤولية ملقاة على عاتق المسيحيين أجمعين، ويتعيّنَ على كل إنسان أن يعمل على تحقيق هذه المهمة بحسب ما يتيسر له من الفرص والمواهب، لأن المحبة التي أعلنها لنا المسيح، تجعلنا مديونين لكل الذين لم يعرفوا المخلص بعد، إذ أنّ الله قد وهبنا نورا، لا لكي نستأثر به لأنفسنا، بل لنضيء به على الآخرين.

فلو أنّ اتباع المسيح كانوا متنبهين لواجبهم وحريصين على أداء مهمتهم، لكان الذين يقومون اليوم بنشر رسالة الإنجيل في البلاد الوثنية يعُدّون بالألوف بدلا من الآحاد القلائل الذين يعملون اليوم، ولكان أولئك الذين لا يستطيعون أن يندمجوا في سلك العمل التبشيري بأنفسهم يخدمون قضية المسيح بأموالهم وعطفهم، وصلواتهم، ولوجدنا في البلدان المسيحية، غيرة أكثر واجتهادا أوفر لربح النفوس.

ولسنا في حاجة إلى أن نذهب إلى تلك الأقطار الوثنية البعيدة لنخدم المسيح، أو نغادر محيطنا الضيق الذي نعيش فيه، إن كان هو المكان الذي يجب علينا أن نعمل فيه، فنستطيع أن نخدم ونحن في المحيط العائلي وفي الكنيسة ونستطيع أن نخدم أيضا بين من نخالطهم ونزاملهم ونعمل معهم.

قضى مخلصنا الشطرَ الأكبرَ من حياتِه، وهو يعمل في حانوت نجار بمدينة الناصرة، وقد كانت الملائكة تخدمه، وهو يسير جنبا إلى جنب مع الفلاحين والعمال الذين لم يلقوا عليه بالاً ولم يعيروه التفاتاً، وكان يؤدي رسالتَه بكل صبرٍ وأمانة في حرفته المتواضعة، كما كان يؤديها وهو يشفي مريضا، أو

وهو يمشي على بحر الجليل الهائج المائج، وهكذا يمكنُ كل إنسان أن يكون في خدمة يسوع، وهو يمارس أوضعَ الحرف وأحقرَ الأعمال.

ولذلك يقول الرسول: «ما دعي كل واحد فيه ايها الاخوة، فليلبث في ذلك مع الله» ١كورنثوس٧:٢٤، فالتاجر يستطيع أن يدير عمله بكيفية تمجد سيده، إذا راعى الأمانة في شغله وجعل ديانته تتخلل كل معاملاته، واظهر روح المسيح في كل تصرفاته، والصانع يمكنه أن يكون مجدّا وأمينا، ممثلا سيده الذي كان يكدح، مؤديا رسالته في أبسط الأعمال وأصغرها، وهكذا يجب على كل من يُسمّي أسم المسيح، أن يؤدي عمله، على الوجه الذي يقود فيه الآخرين إلى تمجيد خالقهم وفاديهم.

غير أنّ الكثيرين يعتذرون عن تقديم خدماتهم للمسيح، بحجة أنّهم ليسوا كغيرهم ممن خصهم الله بمزايا عظمى، ومواهب ممتازة، حتى لقد ساد عند بعضهم الاعتقاد بأنّ التكريس للخدمة يستلزم كفاءاتٍ نادرة ومؤهلات خاصة لا تتوافر إلا في فئة قليلة من الناس الذين خصهم الله دون سواهم بالمساهمة في الخدمة والجزاء، ولكن هذه الفكرة لا تتفق والمثل الذي ضربه المسيح، اذ أوضح أنّ رب البيت دعا عبيده، وأسند إلى كل واحد منهم عملَه الخاص. مرقس١٣:٣٤.

فإن كان لنا روح المحبة، يمكن أن نؤدي أحقرَ واجباتِ الحياة، « من القلب كما للرب»، كولوسي٣:٢٣، وإذا كانت محبة الله في قلوبنا، فإنها تتجلى في حياتنا، فتنبعث منا رائحة المسيح الزكية، ويكون تأثيرَنا في الآخرين عاملا على رفعتهم وإسعادهم.

فما عليك أن تنتظر حتى تتهيأ لك فرص عظيمة، وتحصل على مواهبَ خارقةٍ العادة لكي تستطيعَ أن تخدم الله، ويجب ألا تكون مشغولا بما يفتكر به العالم عنك، لأنه اذا كانت حياتك تشهد بطهارة إيمانك، واخلاص بواعثك، وشدة رغبتك في خدمة الناس ونفعهم، فإن جهودَك لن تضيعَ هباء.

وهكذا يستطيع أفقر إنسانٍ وأحقرُ مخلوقٍ من تلاميذ يسوع أن يكون بركة للآخرين، وقد لا يشعر بأنه يأتي عملا يُذكر في هذه الحياة، ومع ذلك فإنه بتأثيره الخفيّ يحدثُ نتائجَ بعيدةَ المدى، إذ تتبارك، بسبب حياتِه وقدوتِه جموعُ غفيرة من الناس، وربما يظلّ غيرَ شاعرٍ بمثل هذا التأثير في حياة الآخرين حتى ذلك اليوم الذي فيه يكافأ من الله فأمثال هذا لا يشغلون أنفسهم بمدى النجاح الذي يمكن أن يصيبوه، وإنما هم يسيرون في هذه الحياة قدّما، مؤدين عملهم في هدوء وأمانة، بحسب الدعوة التي دُعوا اليها، فهؤلاء لن يضيّعوا حياتَهم سدى، بل هم سيظلون في نموّ مطّرد حتى يصبحوا مشابهين لصورة المسيح ومثاله، وإذ هم عاملون مع الله في هذه الحياة، فهم بذلك إنما يهيئون أنفسَهم لذلك العمل الأسمى، والفرح الخالص المعدّين لهم في الحياة الأخرى.

الفصل العاشر

التعرف بالله

كثيرة هي الطرق التي بها يطلب الله أن يقودنا إلى معرفته، وإلى الوئام والشركة معه، فهذه الطبيعة التي تناجي مدركاتِنا آناء الليل وأطراف النهار تؤثر في كل قلب مفتوح وتهمس في كل أذن صاغية مخبرة بمحبة صانعها ومعلنة مجدَه، فكأنّي بالحقول الخضراء والأشجار الباسقة، وبالسحب المارة والغيوث السارة، وبخرير السيل وجمال السماء تحدثنا عن خالقها وتدعونا إلى التعرّف به.

لقد مثّل مخلصُنا تعاليمَه بما في الطبيعة، وقارن الحقائق الأبدية الثمينةَ التي نطق بها بالأشجار والأطيارِ وبزهورِ الوهاد وكروم النجاد، وبالبحيرات الرائقة والسماوات الرائعة، وألحقها بحوادث الحياة العادية وأحوالها اليومية لكيلا تغربَ عن ذاكرةِ سامعيه بل يتّعظوا بها وسط انهماكاتِ الحياة وأتعابها الكثيرة.

يريد الله أن يستمتعَ أولادُه بحسن صنعته ويبتهجوا بالجمال البسيط المحتشم الذي زيّن به مسكننا الأرضي هذا، لأنّ الله يحب الجمال، ولاسيما جمال الأخلاق الذي يفضله على كل زينة خارجية مهما كانت، ويشتاق إلى أن يرانا مرتدين جمالا كجمال الزهور الهادىء العجيب.

لو تأملنا أعمالَ الله لتعلمنا منها دروسا ثمينة في الطاعة له والاتكال عليه، من كل ما في الطبيعة من الأجرام الفلكية الكبيرة التي على مدى الأجيال تتبع مداراتِها المتسعة المعينة لها، وكل ما في الكون من ذرّات صغيرة أيضا، تطيع ارادةَ خالقها وهو يعتني بها ويقوم بحاجتها، وإنّ الذي يحمل العوالم الكثيرة السابحة في الفضاء الفسيح، هو الذي يعتني أيضا بالعصافير التي تغرّد تمجيدا لخالقها بلا خوف أو وجل، وهو الذي يهيمن على العامل إذ يخرج لعمله اليومي كما يهيمن عليه في المخدع وفي أثناء رقاده وحين قيامهِ من النوم، وإنّه لا يفتأ يراقب الغنيَّ إذ يولم في قصره الولائمَ الفاخرةَ كما يراقب الفقيَر إذ يجمع أولادَه حول مائدتِه الحقيرةِ ليقاسمهم خبزَه الحاف، فليس من دمعة تُذرف إلا ويراها الله، وليس من ابتسامة إلا ويلاحظها بشوقٍ واهتمام.

لو آمنا بهذه القدرة ووثقنا بهذه العناية لطرحنا عنّا كل اهتمام زائد ولأبعدنا عنّا كل خيبةِ أمل، بل وتركنا جميع أمورِنا صغيرة أكانت أم كبيرة، بين يدي القدير الذي لا تحيّره كثرةُ العناية ولا يثقله تعبُ الرعاية، ولكنّا نمتّع نفوسَنا بالراحة التي طالما اشتقنا إليها.

إذ تبتهج مداركَك بجمال الأرضِ الخَّلابِ اجتهد أن تتصوَّر في مخيلتك الأرض الجديدة التي لا تشوبها خطية ولا تمتد إليها سلطة الموت ولا يظهر عليها ظلّ اللعنة، ثمّ إذا بلغت الحدّ في تصورك اعلم أنها ستكون أجمل وأمجد بكثير من كل تصوراتِك، لأنك لا تستطيع أن ترى الآن، مع تنوع عطايا الله، إلا لمحة خاطفة من مجده السني، كما هو مكتوب « ما لم ترَ عين ولم تسمع إذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه» ١كورنثوس٢:٩.

قد يفصحُ الشعراء في وصف جمال الطبيعة ويبالغ العلماءُ في الكلام عن غرائبها، وأما الذي يتمتع بها تمتعا مشبعا فهو المؤمن لأنه يرى فيها عمل يدِ أبيه ويميّز محبة الله في النجاد والوهاد، وفي الأنهر والأبحر، فلا يعرف معناها ولا تناجيه بما تكنّه له من محبة وعناية.

يكلمنا الله أيضا في عنايته بنا ويناجينا بفعل روحه القدوس فينا، فإنّ حوادث الحياة والتقلبات التي نشاهدها من يوم إلى يوم، لو فطنَّا لها، لتعلّمنا عن محبة بارينا، كما أنشد المرنم في ذلك واصفا العناية الإلهية الدائمة قائلا، «امتلأت الأرض من رحمة الرب» و «من كان حكيما يحفظ هذا ويتعقل مراحم الرب» مزمور٣٣:٥؛١٠٧:٤٣.

يخاطبنا الله كذلك في كلمته المنزلة، وفيها يعلن صفاتِه بصيغة واضحة جلية إذ يعرّفنا فيها بأعماله العظيمة في فداء الإنسان ويسرد أمامَنا تاريخ الآباء والأنبياء القديسين الذين كانوا تحت الآلام مثلنا وجاهدوا في أحوالٍ كأحوالِنا الصعبة، وولّوا هاربين منهزمين مثلنا، ثم عادوا وتشجعوا وانتصروا بنعمة الله، ونحن إذ نراهم نتشجع أيضا في سعينا وراءَ البرِّ، وإذ نقرأ عن اختباراتهم الثمينة وتمتَعهم بالنور والمحبة والبركة، وعن العمل الذي قاموا به بنعمة الله وعن الروح الذي أظهروه، يضطرمُ في قلوبنا لهيب الاشتياق إلى أن نقتدي بهم وأن نكون مثلَهم وأن نسير مع الله كما ساروا معه.

قال يسوع عن كتبِ العهد القديم أنّها « هي التي تشهد لي» يوحنا٥:٣٩، وما قاله في العهد العتيق يصدق بالأحرى عن كتب العهد الجديد، لأنّ الكتاب المقدس كلّه لا يخبرنا إلا بالفادي الذي بدونه يكون الجنس البشري الهالك

عديم الأمل في الحياة الأبدية. إنّ المسيح هو موضوع إعلان الله، فمن الكلمة الاولى، «في البدء خلق الله السموات والأرض» إلى الأخيرة في الرؤيا «ها أنا آتي سريعا» لا تقرأ إلا عن أعماله ولا تسمع إلا صوتَه، فإذا أردت أن تتعرَّف بيسوع عليك بقراءة الكتب المقدسة.

املأ قلبَك إذاً بكلمة الله، لأنها الماء الحيّ الذي يروي لظى عطشِك كما أنها الخبز الحيّ من السماء الذي يشبع فرطَ جوعك، ولقد صرح يسوع بذلك قائلا: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم» يوحنا٦:٥٤، ثم أردف موضحا معناه « الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة»، عدد٦٣، فكما أن أجسادنا تتغذى وتُبنى مما نتعاطاه من مأكل ومشرب، كذلك أرواحنا أيضا، فإنها تستمد قوة وشجاعة مما نتأمل فيه من الأمور الروحية الأبدية.

إنّ موضوع الفداء العجيب لمسألة «تشتهي الملائكة أن تطَّلع عليه» وهو سيكون موضوع دراسة المفديين وموضوع ترنمهم وتهللهم مدى الدهور الأبدية. اذاً، أفليس هو الآن جديرا بالتفكير العميق والاعتبار الجدّي الدقيق؟ بلى، لأن محبة المسيح ورحمتَه وتضحيتَه العظيمة من أجلنا لتستلزمُ أعمقَ التأمل وأوفرَ التفكير، بل يجب أن نطيل التبصّرَ في صفاتِ فادينا وشفيعِنا ونديم النظرَ في رسالة ذاك الذي أتى ليخلّص شعبَه من خطاياهم فإن التأملَ في هذه المَواضيع السماوية يقوي محبتَنا ويزيد إيمانَنا ويملأنا ثقة ومحبة، فتصعد صلواتَنا إذ ذاك مقبولةً عند الله لأنها تصدر عن ذهن مستنير وعاطفة مضطرمة وثقة ثابتة بيسوع واختبارٍ حيّ في قوته القادرة أن تخلّص « إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله».

عندما نتأملَ مليّاً في كمالات المخلص يتولّد فينا شوقٌ شديدٌ إلى تغيير كاملٍ وتجديدٍ شاملٍ لنشترك في قداسته وطهارته، ذلك لأننا نزداد جوعا وعطشا إلى التشبّه به، حتى إذا صار الفادي الموضوعَ الشاغلَ في أفكارنا نلهج به في كلامنا ونظهره للعالم في حياتنا وأعمالنا.

هذا وليست الكتب المقدسة للعلماء فقط، بل قد خُصصت أيضا لعامة الناس وجاءت فيها الحقائق العظمى بشأن الخلاص واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار حتى لا يخطيء أحدٌ الطريقَ ولا يضلّ عن سَواءِ السبيل إلاّ من استقلّ برأيه وحاد عمداً عن مشيئة الله المعلنة الجلية.

يجب ألا نكتفي من شهادة إنسان ما بما يقول الكتاب المقدس، بل يجب أن نطالعَ كلمة الله بأنفسنا، لأن اتكالنا على دراسة غيرنا يفلّ نشاطَنا ويُميت مواهبنا ويُضعف فينا القوى العقلية الثمينة التي لا تنمو إلا باستخدامها في مواضيع سامية يتطلب استيعابها مجهودا عظيما متواصلاً، واذا حدث ذلك نفشل في ادرك معنى كلمة الله، إنّ العقل إذا استُعمل في درس مواضيع الكتب المقدسة وفي مقابلة الآية بالآية ومقارنة الروحيات بالروحيات ليتسَّع اتساعا عجيبا بّينا.

ليس ما يقّوي الإدراك مثلُ درسِ كلمة الله، وليس ما يرفع الأفكار ويكسب العقل حذاقة مثل التأمل في الحقائق الكتابية العميقة المهذبة، فلو درسِ الإنسان الكلمةَ كما يجب لوجد فيها سعةَ عقلٍ وسموَ أخلاقٍ وثباتَ وعزمٍ قلما نراها في هذه الأيام.

على أنّ الفائدةَ من قراءة الكتاب المقدس قراءةً عاجلةً بدون تروٍ ضئيلةٌ جدا، فقد يقرأ المرء الكتابَ كله، من التكوين إلى الرؤيا، ولا يرى شيئا من جماله ولا يسبرَ شبرا من غوره، وأما إذا أطال التأمل في آية واحدة فقط إلى أن يدرك معناها ويفهم مغزاها في تدبير الخلاص فيستفيد أكثر بكثير مما لو تلا فصولا عديدة دون هدف ولا منفعة، إذن خذ كتابك معك واقرأ فيه كلما وجدت لذلك فرصة سانحة، واستذكر آياتِه التي تقرأها لأنه من الممكن أن تتأمل في الآيات وأنت ماشٍ في الشارع فتثبتها في ذاكرتك.

إننا لن نصير ذوي حكمة إلا اذا أعرنا الكتاب المقدس التفافا جديا ودرسناه دراسة مصحوبة بالصلاة، لأنه، وإن كان في الكتاب فصول لا يخطيء أحدّ في فهمها إلا أنّ فيه أيضا فصولا ذات معنى عميق بعيد الغور، لا يسهل فهمُها لأولِ وهلة، فيجب إذن مقارنة الآيات بالآيات مع توخّي الدقة في البحث والتعمق في التفكير والصلاة، وبذلك تعود علينا دراسةُ الكتاب المقدس بالخير العميم والنفع الجزيل، فكما يبحث المعدِّن عن الأحجار الثمينة في جوف الأرض، هكذا يجب أن ننقّب في كلمة الله عن كنز ثمين حتى نجد فيها حقائق ذات قيمة عظمى مما قد أخفيَ عن عيون كثيرين من الذين يقرأون الكتاب قراءة عجلى، فإنّ كلمة الوحي إذا وعيناها في قلوبنا وتدبرناها كانت بمثابة جداول تتدفق من ينبوع الحياة.

وحذار من الإقدام على دراسة الكتاب دون أن تستعين بالصلاة، فقبل أن تتصفحه يجب أن تطلب الاستنارة من الروح القدس، ومتى طلبت فلا بد من أن تنال، فإن يسوع حين رأى نثنائيل مقبلا اليه قال عنه « هوذا إسرائيلي حقا لا غش فيه، فقال له نثنائيل من أين تعرفني، أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك

فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك» يوحنا١:٤٧و٤٨، فيسوع الـذي رأى نثنـائيل وهو يصلّي تحت التينة يراك أيضا وأنت تصلّي في مخدعك إن كنت تتلّمس منه النور لمعرفة الحق، بل إنّ ملائكة النور أنفسهم سيرافقونك ويأخذون بيـدك إن كنت تطلب الهداية والإرشاد بروح الاتضاع والانقياد.

إنّ عمل الروح القدس هو أن يعظّم المخلّص ويمجّدَه إذ أن الروح هو الذي يقدّم لنا المسيحَ وبرَّه وخلاصَه كما قال يسوع عنه « ذاك يمجدني لأنّه يـأخذ مما لي ويخبركم» يوحنا١٦:١٤، فإنما روح الحق دون سواه هو المعلّم المؤثّر الذي يستطيع أن يعلّمنا الحق الإلهي.

فيا لعظم تقدير الله لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنه ليبـذل حياتَـه لأجلنـا ووهبنا الروح القدس ليكون معلمنا الذي يستطيع أن يعلّمنا الحق الإلهي.

فيا لعظم تقدير الله لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنَه ليبـذل حياتَـه لأجلنـا ووهبنا الروح القدس ليكون معلمَنا ومرشدا لنا.

أقرب ما دمـت إلى مخلصي القدير
مع أنّ قلبي معه في طريقه يسير
لما رأيت أولاً جماله القدسي
سُقيت كأسَ حبِه فانتعشت نفسي
يا طيب ساعات بها أخلو مع الحبيب
يجري حديثي معه سراً ولا رقيب

الفصل الحادي عشر

الصَلاة

نعم يكلمنا الله في الطبيعة وفي الوحي، ويناجينا بأعمال العناية وبتأثير الروح القدس فينا، ولكنّ هذا كله لا يكفي، بل، لكي تكون لنا حياة وقوّة روحّيتان، يلزم أن نفيض له بمكنونات صدورنا، ونحادثه عن جميع أمورنا، فقد تنجذب إليه عواطفنا، وقد نتأمل أعماله ومراحمه وبركاتِه دون أن نكون قد تحدثنا إليه بالمعنى الحقيقي، فلكي يكون بيننا وبين الله تحادث يجب أن نخبرَه، في صلاتنا إليه، بما في حياتنا من واقعيات.

إن الصلاة هي فتح القلب لله كما لو كنا نكلّم صديقا حميما، وليست هي ضرورية لنعلم الله بما نحن عليه، ولكنّها ضرورية لأنّها تمكننا نحن من قبول نعمته، إذ أنّها لا تُنزل الله إلينا ولكنّها ترفعنا إليه تعالى.

علَّم يسوع تلاميذَه كيف يصلّون وأرشدهم إلى أن يعرضوا حاجاتِهم اليومية لله، ويُلقوا كل همهم عليه، وأكدّ لهم أن طلبتهم تستجاب، وما قاله لهم قاله لنا نحن أيضا.

ويسوع نفسه، وهو حالّ بين الناس، كان يصلّي كثيرا، فإذ اتحد بنا، وصارت حاجاتُنا حاجاتِه وضعفاتُنا ضعفاتِه، تضرّع إلى الآب لينال منه قوةً جديدةً وليخرج متشدّدا لمواجهة واجبات اليوم وتجاربه، وهو في كل شيء مثالنَا، كما أنه أخٌ لنا في ضيقاتنا، « مجرب في كل شيء مثلنا» ولكنّه مع

ذلك هو القدوس الذي نفرت طبيعتُه من الاثم، وقاسى صراعا وعذابا أليما وهو في عالم الخطية، فجعلت بشريتُه الصلاةَ ضروريةً له، لذّةً وامتيازا، ووجد في التحدث إلى الآب فرحاً وعزاء، فإذا كان مخلّص الناس، ابنُ الله الحبيب، قد شعر بحاجةٍ إلى الصلاة، فكم هو أجدر بنا نحن الضعفاء والأثمة المائتين أن نشعرَ بحاجتِنا إلى الصلاة الحارّة المستديمة.

يترقب أبونا السماوي الفرصَ ليغمرنَا ببركاته، وإنّه لمن ميزاتنا أن نشربَ جرعاتٍ مشبعةً من ينبوع محبته، فما أغرب قلة صلواتنا إليه. إنّ الله لمستعد وراضٍ ان يسمع الصلاةَ الخالصةَ الصاعدةَ من أوضع أولاده، ومع ذلك نرى بيننا ترددا ظاهرا في إعلامه حاجاتنا، وماذا يظنّ الملائكة في أناسٍ مساكين ضعفاء مُعرّضين لتجاربَ قوية وهم على رغم ذلك لا يصلّون إلا قليلا، ولا يؤمنون إلا يسيرا! وأما الله فإنّه مشتاقٌ اليهم، راغبُ في أن يهبهم أكثرَ جدا مما يتصورون. وها الملائكة يُسرّون بالسجود أمام الله ويحبون القرب منه تعالى ويتلذذون بالتحادث اليه ولكن أولاد آدم، وهم في مسيس الحاجة إلى عونه تراهم مكتفين بأن يسلكوا بدون نور الروح القدس وبدون مرافقته لهم وحضوره معهم.

يرخي الشرّير سدول ظلامه على الذين يسهون عن الصلاة ويغريهم على الخطية إذ يهمس في قلوبهم بوسوسته، ذلك لأنهم لا يستغلون حقوقهم التي أنعم بها الله عليهم في الصلاة، ولماذا يحجم بنو الله عن الصلاة وهي المفتاح في يد الايمان به يفتحون خزائن السماء المذخّر فيها وفور غنى القادر على كل شيء؟ وإن لم ندأب في الصلاة ونجاهد في السهر نعرّض أنفسنا لخطر الإهمال فالحيدان عن المنوال المستقيم، لأن العدو يسعى سعيا متواصلا ليضع العراقيل

في الطريق المؤدي إلى عرش النعمة ويمنعنا من الحصول على النعمة والقوة لمقاومة التجارب بواسطة الإيمان والصلاة.

أجل يشترط الله شروطا معينة لا بدّ من إيفائها ليستمع لدعائنا ويجيبنا إلى طلباتنا، أولها أن نشعر بحاجتنا إلى معونته، فقد وعد قائلا « أسكب ماء على العطشان وسيولا على اليابسة»، إشعياء :٣، فالذي يجوع ويعطش إلى البر ويشتاق إلى الله، لا بدّ من إشباعه، ولكن يجب أن يكون قلبه مفتوحا لتأثير الروح القدس وإلا فالبركة لا تأتيه.

إنّ أقوى حججنا لنيل البركات هي حاجتنا اليها عيناً، فإنها تشفع فينا بأفصح العبارات، إلا أنه يجب علينا أن نطلب من الله أن يعمل لأجلنا، كما قال «أطلبوا تجدوا»، و «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء» رومية٨:٣٢.

إن راعينا إثماً في قلوبنا، أو تمسكنا بخطية واحدة معلومة لدينا، لا يستمع لنا الرب، ولكنه في كل وقت يقبل صلاة النفس التائبة المنسحقة، فيحق أن نؤمن بأن الرب قد سمع وأنه ليستجيب صلواتنا، لأننا ونحن خطاة قصار البصر، كثيرا ما نطلب ما هو لضررنا، وأما ابونا السماوي فحباً لنا ورفقا بنا يستجيب صلواتنا بأن يعطينا ما هو لخيرنا الأكبر وما كنا لنطلبه لأنفسنا لو استنيرت أذهاننا وعرفنا الأمور على حقيقتها، فعندما يبدو لنا أن صلواتنا غير مستجابة يجب أن نتمسك بالوعد، لأنه لا بد من أن يأتي وقت الاستجابة وننال البركة التي نحن في أشد الحاجة اليها، وأما الادّعاء بأن صلواتنا تستجاب بالكيفية التي نعيِّنها نحن وفي الشيء نفسه الذي نطلبه فهو تطفّل، بل تصلّف،

لأن الله احكم من أن يخطيء وأصلح من أن يمنع خيرا عن السالكين بالكمال، فلا تخشَ الاتكال عليه حتى إذا كنت لا ترى الجواب فورا عما طلبت، بل ثق بالوعد الأكيد القائل «اسألوا تعطوا» متى٧:٧.

أما اذا أخذنا بمشورة شكوكنا ، وسرنا على رأي مخاوفنا، وأردنا أن نحلّ كل معضلة قبل أن نؤمن بالله، فلا نزداد إلا حيرة وارتباكا، ولكن إذا أتينا اليه شاعرين بنقصنا وقصر باعنا، وبإيمان وديع وثقة ثابتة أعلمناه بحاجتنا، وهو العليم بما في السماء وعلى الأرض، ويرى كل ما في الخليقة ويسيّر كل شيء بكلمته وبحسب إرادته – فهو القادر أن يسمع دعاءنا وينير قلوبنا، وهكذا بصلواتنا المخلصة نصير على اتصال بفكر القادر على كل شيء، وقد لا نرى دليلا قاطعا على أنّ المخلص يحنو علينا ويحبونا برحمته ومحبته، وقد لا نحسّ بلمسة يده على جباهنا في رفق وحنان، ومع ذلك هذه هي الحقيقة الراهنة.

وإذ نأتي إلى الله لنطلب منه رحمة وغفرانا يجب أن يملأ قلوبنا روح التسامح والمحبة للآخرين، وكيف يمكننا أن نصلي قائلين « وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا» ما دام فينا روح الانتقاد وعدم الإغضاء؟ فإنه على قدر ما نتوقع أن يسمع لنا ويسامحنا، على هذا القدر عينه يجب أن نصفح نحن للآخرين ونسامحهم.

جعل الله المثابرة على الصلاة شرطا لاستجابتها، فقد أمرنا أن نصلي بلا انقطاع لكي نتقوى في الإيمان ونتقدم في الاختبار، فأمر أن نواظب « على الصلاة»، وأن نسهر «فيها بالشكر»، ونتعقل ونصحو « للصلوات»، و «في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله» و « انتم أيها

الأحباء ... مصلين في الروح القدس ... احفظوا أنفسكم في محبة الله»، رومية١٢: ١٢؛ كولوسي٤: ٢؛ ١بطرس٤: ٧؛فيلبي٤: ٦؛ يهوذا٢٠و٢١. في المواظبة على الصلاة تتحد النفس بالله اتحادا لا تنفصم عراه فتجري حياة من الله إلينا، وترجع إليه تعالى لمجد اسمه في طهارتنا وقداستنا.

إن المثابرة على الصلاة لضرورية حيوية، فيجب ألا يعوقك عنها شيء، بل ابذل الجهد لتكون نفسك على اتصال دائم بيسوع، واغتنم كل فرصة تسنح للذهاب إلى حيث تجري العادة أن تكون صلاة، لأن الذي يطلب محادثة الله تواه في اجتماع الصلاة قائما بواجبه، مهتما به، مجدّا في الحصول على كل بركة وفائدة، ملتمسا أن يكون حيث تضيء عليه الأشعة السماوية.

يجب أن نصلي في دائرة العائلة، ولكن الصلاة الانفرادية هي أكثر الصلوات حياة للنفس وقوة لها، فاذا ما أُهملت تذبل النفس ولا تستطيع أن تزهو وتثمر، ولا تغني الصلاة العائلية أو الصلاة العمومية في المجتمع عن الصلاة الانفرادية في المخدع، إذ أننا نحتاج أن نكشف نفوسنا أمام الله على انفراد وأن نصعد ابتهالاتنا إلى اذني رب الجنود حيث لا تسمعها أذن بشرية، والنفس في المخدع تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي وفي معزل عن كل ما قد يثير الحواس أو يهيّج العواطف، فتتلمس الله بهدوء وحرارة عظيمين، وما أحلى البركات المنبثقة حينئذ من الذي يرى في الخفاء ويسمع كل صلاة تصعد من صميم الفؤاد، وهكذا، بالإيمان البسيط الهاديء، تتمسك النفس بقوة الله وتجمع لذاتها أشعة نوره لتسندها في محاربتها الشيطان الرجيم، إن الله لبُرجها الحصين.

فصلِّ إذن في مخدعك، وليكن قلبك مرفوعا إلى الله، وأنت تباشر أعمالك اليومية، لانه هكذا سار أخنوخ مع الله، ومثل هذه الصلوات الصامتة تصعد أمام عرش النعمة كالبخور العطر، ولن يغلب الشيطان أبدا الإنسان الذي يستند على الله هكذا في قلبه.

وليس من مكان أو زمان لا يليق رفع الطلبة إلى الله فيهما، وليس من مانع يستطيع أن يمنعنا من التوجه إليه في قلوبنا في روح الصلاة الحارة طالبين في شوارع المدينة المزدحمة أو في وسط صفقة تجارية، الإرشاد الإلهي، كما فعل نحميا وهو مائل في حضرة الملك ارتحشستا، لأننا حيثما كنا فنحن مع الله كما في مخدع، وقلوبنا مفتوحة تدعو يسوع أن يمكث فيها ضيفا كريما محبوبا.

ولئن كنا محاطين بجو فاسد مميت، لا يتحتم علينا أن نستنشق هواءه المفسد، بل في إمكاننا أن نحيا في جو السماء النقي المنعش بأن نوصد كل باب في وجه التصورات النجسة والتفكرات الدنسة، ونرفع قلوبنا إلى الله في صلاة خالصة، فالذي يرفع نفسه إلى الله لقبول عونه وبركته يسير في جو أقدس من الذي يحيط بالأرض، ويتصل بالسماء اتصالا وثيقا دائما.

من حاجاتنا الماسة أن نرى يسوع رؤية أجلى وأوضح وأن ندرك الأمور الأبدية إدراكا أكمل وأصرح، فيجب أن تملأ زينة القداسة حياةَ اولادِ الله، ولا يتمّ لهم هذا إلا إذا طلبوا إعلان الأمور السماوية إعلانا إلهيا جليا.

فلتنجذب النفس إلى فوق ليمنحها الله أن تتنسمُ نسيم السماء لأنه في إمكاننا أن نعيش قريبا من الله حتى تتجه أفكارنا اليه إذا داهمتنا تجربة كما تتجه زهرة الاقحوان نحو الشمس على الدوام.

اعرض حاجاتِك وأفراحك وأحزانك وهمومَك ومخاوفَك أمـــام الله بصـورة دائمة، فإنه لا يقلق من كثرتها ولا يمل من عددهـــا، فـالذي يحصـي شـعر رؤوسنا، ألا يهتم بحاجات أولاده؟ بلـى. « الـرب كثـير الرحمـة ورؤوف» يعقوب٥:١١، وقلبه المحب يتأثر من أحزاننا حتى من ذكرها له، فاذهب اليـه بكل ما يحيّر فكرك واثقا أنّ الذي يحمل العالمين بكلمته ويسيرّ الكواكب حسـب إرادته لا يعظم عليه أمر، ولا يستصغر أمرا ما حتى لا يعيره التفاتا، فليس فـي أختباراتنا فصل لا يستطيع أن يقرأه ولا في حياتنا معضلة لا يعرف حلـها، ولا تصيب أحدَ أولاده الاصاغر نكبةٌ، ولا يبهجهم فرحٌ، ولا يساورهم خـوفٌ، ولا تصعد صلاةٌ خالصة من شفاههم، إلاّ ويعلم بها أبونا السماوي ويهتم لهم بـها، فهو «يشفي المنكسري القلوب ويجبر كسرهم» مزمور١٤٧:٣، ويعـامل كـل نفس معاملة فارقة كاملة كأنها هي الوحيدة التي بذل ابنه لأجلها.

قال يسوع «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إني أنا اسـأل الآب من أجلكم. لأن الآب نفسه يحبكم» و « أنا اخترتكم ... لكي يعطيكـم الآب كل ما طلبتم باسمي»، يوحنا١٦:٢٦و٢٧؛١٥:١٦، ولكن الطلب باسم يسـوع لا يعني مجرد ذكر اسمه العزيز في مستهل الصلاة أو في ختامها، بـل يعنـي أن يكون فينا فكر المسيح وروحه وان نكون مؤمنين بمواعيده، متكلين على نعمته وممارسين أعماله.

واذ يطلب الله منا أن نعكف على التعبد والصلاة، فهذا لا يعني أن نعتزل هذا العالم ونلجأ إلى الأديرة والصوامع لكي نحيا حياة الترهّب والتنسّك، بل يجب ان نكون مقتدين بيسوع الذي كان يقضي يومه بين الاختلاء في الجبـل وخدمـة الجمهور، فمن يحاول أن يقضي الوقت كله في الصلاة لا يلبث أن يـهجرها أو

يأتيها كمجرد فرض عليه، ذلك أن الإنسان عندما ينـــتزع نفســـه مـــن حيـــاة المجتمع ويتناءى عن الواجب المسيحي ويتهرّب من حمل الصليب، تفتر همتُـــه ويخمد نشاطُه في خدمة سيده وتصير صلاته بدون هدف وبدون باعث وتصبـــح طلباته مقتصرة على ذاتيته ومحصورة في دائرة انانيته، فـــــلا يصلـــي لأجـــل حاجات البشر عامة أو لأجل تقدم ملكوت الله أو للحصول على قوة لكي يخـــدم ربه خدمة ناجعة مقبولة.

إننا إن أهملنا واجب المعاشرة واغفلنا تشجيع وتقوية بعضنا البعض علـــى المضي في خدمة الله، نخسر خسارة أيّة خسارة إذ تفقد الحقائق الإلهية قوتَـــها على إحيائنا، وتقل أهميتها في نظرنا، فلا تؤثـــر بعـــد فـــي أفكارنـــا لإنارتـــها وتقديسها، فننحط انحطاطا روحيا متواليا، هذا وإن لم يصرِْ بيننا وبين بعضنـــا عطفٌ متبادل نخسر ميزات المعاشرة وفوائدها، لأن الذي يعيش بمعـــزل عـــن الناس وينطوي على نفسه لا يملأ المقام المعين له من الله، ففينا غرائز تميـــل إلى المخالطة ويكسبنا إنماؤها عطفا على الآخرين وتقدما في خدمـــة المولـــى وقوة على إرضائه.

لو كان المسيحيون يجتمعون للتحادث عن محبة الله وعن الفـــداء العظيـــم والحق الثمين لشرحوا بذلك خواطرهم وانعشوا بعضهم بعضا، لأنه في إمكاننـــا أن نتقدم كل يوم في معرفة الله ونختبر اختباراتٍ جديدة فـــي نعمـــه، وإذ ذاك نرغب في التكلم عن محبته وتلتهب قلوبنا فينا ونتشجع، فلو زدنا في التحـــادث عن يسوع وقللنا من التكلم عن أنفسنا لتمتعنا بدوام حضـــوره معنـــا وحلولـــه بيننا.

لو كان تفكرنا في الله يعادل ما نراه من الدلائل على عنايته بنا لكنا نفكر فيه على الدوام ونُسرّ بالتكلم عنه ونلهج بحمده، أننا نتحادث عن الامور الزمنية لأننا نهتم لها، ونذكر أحباءنا لأننا نحبهم ونرتبط بهم ولأنهم علّة أفراحنا وأتراحنا، بيدَ أن أسباب محبتنا لله كثيرة لا تقاس، فيجب ان يكون غريزيا فينا أن نجعله الأول في أفكارنا لنذكر حسناته ونخبر بقوته، ولم يكن القصد من هباته الغنية التي يجزلها لنا ان نستغرق فيها ونغرم بحبها حتى لا يكون لنا وقت للتفكير في واهبها، بل كان القصد منها أن تربطنا به تعالى برباط المحبة والشكران الشديدين، ولكننا نسكن في الحضيض، فلنرفعن أعيننا إلى باب المقدس السماوي المفتوح حيث نرى مجد الله المضيء من وجه يسوع المسيح القادر «ان يخلص أيضا إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله» عبرانيين٧:٢٥.

يلزم أن نكثر الحمد «على رحمته وعجائبه لبني آدم» مزمور١٠٧:٨، وألا تقتصر عبادتنا على الطلب والأخذ، وألا نفكر دائما في حاجاتنا ونغضّ الطرفَ عما بين أيدينا من النعم والبركات، لأننا، وإن كنا لا نصلي أكثر مما يلزم وإنما نبخل في تقديم الشكر اللائق، نرى مراحم الرب التي تغمرنا على الدوام، وما اقل شكرنا وما أشد بخلنا في الحمد له على كل ما صنع لأجلنا.

قال الله لإسرائيل قديما إذ اجتمعوا لخدمته « تأكلون هناك أمام الرب الهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم، انتم وبيوتكم، كما باركك الرب الهكم» تثنية١٢:٧، فالذي نعمله لمجد الله إنما يجب أن نعمله بفرح وبترانيم الحمد والشكر، لا بالغم والاكتئاب.

إنّ إلهنا أبُ رؤوف فيجب ألا نحسب الخدمة له عملا شاقا مكدّرا، بل سلراً ومُستحبا لدينا، وأنه لا يسرّه ان نعتبره سيدا صارما مسخرا فهو صديقنا الخالص، واذ نعبده يريد الحضور معنا ليباركنا ويعزينا ويملأ قلوبنا فرحا ومحبة، فنجد في عبادته عزاء ولذة، لا عناء ومشقة، ونخرج من مكان العبادة وأفكارنا منصرفة إلى التأمل في عنايته ومحبته، فنتقوى للقيام بالواجبات اليومية ونحصل على نعمة تمكننا من الاستقامة والأمانة في جميع معاملاتنا.

فلنجتمع حول الصليب ولنجعل المسيح وإياه مصلوبا مدار تأملاتنا وموضوع محادثاتنا ومبعث فرحنا وابتهاجنا، ولنتذكر كل بركة تأتينا من الله حتى إذا ما تحققنا عظم محبته نثق به ونودع بين يديه المسمرتين كل أمورنا عن رضى مطمئين.

إنه في استطاعة النفس أن تسمو وتعلو إلى السماء على أجنحة الحمد والشكر، فاذ نعبُّر عن شكرنا له بصوت الترنم تصير عبادتنا كعبادة الجيوش السماوية التي تقدم لله الحمد بقيثارات ونغمات مفرحة، ولقد قال تعالى إن « ذابح الحمد يمجدني» مزمور ٥٠: ٢٣، فهلمَّ نتقدم إلى خالقنا ونهتف له بصوت «الحمد وصوت الترنم» إشعياء ٥١: ٣.

الفصل الثاني عشر

الشك

كثيرون تتوزعهم الأفكار وتقلقهم الشكوك، ولاسيما حديثو الإيمـــان، ذلــك لأنهم يصادفون في الكتب المقدسة آياتٍ لا يستطيعون تفســـيرها ولا فهمـــها، يستخدمها الشيطان لإثارة الشك في كونها موحى بها من الله، فتراهم يتساءلون متحيرين، «كيف يمكننا ان نعرف السبيل السوي؟ واذا كان الكتـــاب المقــدس كلمة الله حقيقة كيف يتسنى لنا أن نتحرر من الشكوك والارتباكات؟»

إنّ الله لم يطلب من أن نؤمن دون أن يقدم لنا بيِّنات كافيـــة نبنـــي عليـــها إيماننا، فالشواهد التي تدلنا على وجود الله، وتظهر لنا صفاتِه وسجاياه، وتثبت صدق أقواله، متوافرة لدينا، وهي مستساغة للعقل أيضا، ومع ذلك فإنه تعـــالى لم يُزِل إمكانية الشك، اذ يجب أن نختار بين أن نؤمن أو نرتاب، فمـــن اراد أن يرتاب يجد ما يتعلل به، ومن أراد أن يؤمن فلا تعوزه البينة ولا ينقصه الدليل.

بيد أنّه يستحيل على عقولنا أن تدرك كنه الله، او أن تستوعب أعماله، لأنه تعالى محاط بأسرار تحير ذوي الألباب الثاقبة، فإنّ أذكى الأذهان المثقفة تعجــز عن سبر غورها، بل يقف العلماء منها موقف من قال « أإلى عمق الله تتصـــل أم إلى نهاية القدير تنتهي، هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل، أعمق من الهاوية فماذا تدري» أيوب١١:٧و٨.

وكتب الرسول بولس في ذلك هاتفا بتعجب «يا لعمق غنـــى الله وحكمتـــه وعلمه ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاســتقصاء» رومية١١:٣٣، لكن، ولئن كان « السحاب والضباب حوله (فان) العدل والحق قاعدة كرســيه» مزمور٩٧:٢، وفي استطاعتنا ان نفهم معاملته للناس وأنت نعــرف بواعثــه، فنرى فيها محبة ابدية متحدة بقوة فائقة الحد، ونستطيع ايضا أن نــدرك مــن مقاصده ما هو لمنفعتنا، وأما فيما عدا ذلك فإننا نثق بمحبته ونتكل على قوته.

كذلك كلمة الله أيضا، فيها كما في مُنزّلها، أسرار لا يمكـــن اســتقصاؤها، وأهم مواضيعها، كدخول الخطية إلى العالم، وتجسد المسيح، والتجديد والقيامة، وما إلى ذلك من مكنونات الكتب المقدسة، كلّها أعماق لا يصل الإنســان إلــى سبر غورها، ولكن عدم استطاعتنا أن ندرك أعمال العناية الإلهية ليــس ممــا يدعو إلى عدم الإيمان بها، إذ أننا محاطون في عالم الطبيعة، بأسرار لا يمكــن الوصول إلى فهمها، فلم يستطع فطاحل العلماء والفلاسفة أن يفهموا كنه الحياة الظاهرة في أبسط مخلوقات الله، وإننا حيثما نلتفت نجد أسراراً لا ندركها، فــهل نستغرب إذاً وجود أسرار في العالم الروحي يعسر علينا فهمـــها؟ والصعوبــة ليست في الحقائق نفسها بل في ضعف العقل البشري وقصره، ومع ذلــك فقــد أعطانا الله في الكتب المقدسة بيانات كافية لاثبات الحقيقة بأنها مـــن مصــدر الهي، فلا نشك فيها اذا وجدنا فيها ما ليس في طاقتنا أن ندركه تماما.

نعم، في الكتب المقدسة، كما قال الرسول بطرس، « أشياء عســرة الفــهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين ... لهلاك أنفسهم» ٢بطــرس٣:١٦، وقــد اتخذ الملحدون هذه الأشياء العسرة الفهم حجة لعدم الإيمان، بيــد أنّ النتيجــة

يجب أن تكون على النقيض من ذلك، لأن هذه الصعوبات تكون حجة قوية على كونها منعزلة، إذ لو خلت الكتب المقدسة، في أخبارها إيانا عن أمور الله، من كل ما يعسر علينا فهمه، ولو أدركت العقول البشرية الضعيفة ما جاء فيها عن عظمته وجلاله، لاعتُبِر هذا الخلو برهانا على أنها لا تحمل سمة الله التي تنفي عنا كل شك، أما سمو مواضيعها وجلالها فيولدان في القلوب أيمانا بها وثقة بأنها كلمة الله المُنزّلة.

يعرض الكتاب المقدس الحق ببساطة يتمكن معها عامة الناس من معرفة جلية، وينشره بكيفية تلائم حاجاتِ البشر وتمنياتهم، ولقد أذهلت ذوي العقول المثقفة واستهوتهم، غير أن الحقائق التي يعبر عنها الكتاب المقدس ببساطة متناهية تتناول مواضيع سامية، بعيدة الغور، فائقة قوة الإدراك البشري، حتى اننا نؤمن بها فقط لثقتنا بأنّ الله تعالى هو معلنها، فنرى تدبير الفداء موضحا بحيث تعرف كل نفس الخطواتِ التي عليها أن تخطوها في التوبة إلى الله والايمان بربنا يسوع المسيح الذي به تنال الخلاص من الله، ومع ذلك يحوي هذا التدبير الواضح اسرار يتستر فيها مجد الله، تذهل عقول دارسيها وتلهم المخلصين في طلب الحق وقارا وإيمانا، واذا أمعن القاريء النظر فيها ازداد اقتناعا ويقينا بانها كلمات الله الحي، فينحني المنطق البشري أمام جلال الوحي الإلهي.

يرفض الشكاك والملحدون كلمة الله لأنهم يعجزون عن سبر غور أسرارها وليس جميع الذين يدّعون الإيمان في أمن من هذا الخطر المحدق، فها الرسول بولس يحذرننا قائلا «انظروا أيها الاخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم الإيمان في الارتداد عن الله الحي» عبرانيين٣:١٢. إنه لمن الصواب أن ندرس

تعاليم الكتب المقدسة بتدقيق وامعان، وأن نفحص كل شيء « حتى اعماق الله»، ١كورنثوس٢: ١٠، كما قد أعلنها الله، لأن « السرائر للرب الهنا والمعلنات لنا» تثنية٢٩: ٢٩، ولكن الشيطان يعمل على تضليل قوى العقل، فيدخل في دارس الكتاب المقدس شيئا من العجب بذاته حتى أنه يشعر بتضجر وفشل إن لم يستطع ان يفهم كلمات الوحي، ولا يصبر ريثما يعلنها له الروح القدس حين يشاء، واذ يعتد بحكمته البشرية حاسبا أنها كافية لإدراك معاني الكتب المقدسة، ثمّ يُمنى بالفشل في بلوغ الغاية المنشودة فما يلبث أن يكذّبها ويرفض سلطانها، وهذه النظريات والمعتقدات التي تولّد الشك في العقول وتربكها والتي يزعمون أنها مبنية على كلمة الله، وهي بالحقيقة لا تمتّ اليها بصلة، بل تناقضها تناقضا بينا، إنما هي من استنباط الناس وتحريفهم، وكلمة الله بريئة منها براءة تامة.

لو كان في مقدور المخلوق أن يحيط علما بالخالق ويدرك جميع أعماله إدراكا كاملا لبلغ بذلك الحد في التقدم والمعرفة حتى لم يبق له مجال للنمو في العلم والازدياد في كمال الصفات، فلا تكون بعد أفضلية لله أو سيادة، والإنسان، اذ قد بلغ الحد في العلم والكمال، يتوقف عن التقدم، فلنشكرن الله أن الامر بخلاف ذلك، لأن الله، «المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» كولوسي٢: ٣، لا يستقصى ولا يُحدّ، وسيقضي الإنسان الأبدية كلها في البحث والدرس دون أن يستنفد كنوز حكمة الله وجوده وقوته.

يريد الله منا أن نتقدم، حتى في هذه الحياة، تقدما مطردا في فهم حقائق كلمته، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإنارة الروح القدس الذي أوحى بها، لأن « أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله» و «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله»

١كورنثوس٢: ١٠و١١، وقد وعد المخلص تلاميذه قائلا «متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ... لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» يوحنا١٦: ١٣و١٤.

يريد الله أن يستعمل الإنسان قواه العقلية، وليس ما يزيد هذه القوى قوّةً واقتدارا ويرقّي الذهن ترقية عالية مثل درس كلمة الله، على أنه يجب علينا ان نحترس من تأليه العقل، لأنه يشارك سائر أعضاء البدن ضعفاتها وأسقامها، وإن كنا نريد ألا تلتبس علينا أوضح الحقائق الكتابية يجب أن ندرسها ببساطة الولد وإيمانه مظهرين رغبتنا في التعلم وملتمسين معونة الروح القدس، واذا شعرنا بقدرة الله وحكمته وعدم استطاعتنا أن ندرك عظمته يلهمنا هذا الشعور وداعة واتضاعا، فنفتح الكلمة بوقار مقدس كما لو كنا نمثل امام حضرته فعلا، فيجب أن يقدَم المرءُ على درس كلمة الله معترفا بوجود سلطة تفوق العقل ومخضعا القلب والعقل ليهوه القيوم.

يوضح الله الأشياء الكثيرة التي تبدو غامضة معقدة والتي نميل دائما إلى تحريفها وإساءة تأويلها للذين يدرسون الكلمة بروح الوداعة طالبين النور والارشاد، ولكنّ الكثيرين يقرأون الكتاب المقدس ولا يجنون منه فائدة، ولربما يصيبهم ضرر بالغ إذ هم يفتحون كلمة الله بدون احترام وبدون صلاة، وافكارهم لم تتوجه إلى الله ولم تثبت عواطفهم فيه ولم تتسق اراداتهم مع ارادته، فيخيّم الشك على عقولهم ويتقوّى فيهم عدم الإيمان فيملك العدو أفكارهم ويوحي إليهم بتفسيرات مضلة، والذي لا يطلب أن يوائم الله قولا وفعلا مهما كان عالما مقتدرا، هو عرضة للخطأ في فهم الكتاب المقدس والضلال في تفسيره، فلا يُعوّل عليه، وأولئك الذين يفتشون الكتاب المقدس بقصد العثور

على تناقضات فيه إنما تنقصهم البصيرة الروحية، وإذ ينظـــرون إليـــه نظـــرا معوّجا يرون في أبسط آياته وأوضحها أسباب الشك وعدم الإيمان.

إنّ سبب الشك الأساسي، مهما تنكّر وتستّر، هو في الغـــالب الميـــل إلـــى الخطية، فلا يرحّب المتكبر المحب للخطية بمناهي كلمة الله وإرشـــاداتها، وإذ لا يرغب في الانصياع لتعليمها تجده على استعداد أن يشك في صحتـــها وينكـــر سلطتها، فلكي نصلَ إلى معرفة الحق يجب أن تكون فينا رغبةٌ صادقـــةٌ فـــي معرفة الحق وميلٌ قلبي للسلوك بموجبه، وكل الذين يدرسون الكتب المقدســـة بمثل هذه الروح يجدون فيها البراهين القاطعة على أنها كلمة الله حقـــا، وقـــد يكتسبون منِ معرفة حقائقها ما يحكّمهم للخلاص.

قال يسوع «إنّ شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليـــم»، يوحنـــا٧:١٧، فعوضا عن التساؤل والتماحك في ما لا تفهمه احرص أن تنتبه إلى النور الـــذي قد حصلت عليه فتأخذ نوراً أعظم، واجتهد، بنعمة المسيح، أن تقوم بكل واجـــب قد صار واضحا أمامك تنل قوة تقدّرك على فهم ما انت فيه الآن شـــاكٍ وعلـــى القيام به أيضا.

إنّ في الاختبار لدليلا يدركه الجميع، متعلمين كانوا او أميين، والله يدعونـــا إلى امتحان صحة أقواله وصدق مواعيده إذ يأمرنا قائلا « ذوقوا وانظروا مـــا أطيب الرب» مزمور٣٤:٨، لأنه لا بدّ أن يحقق لنا هذه المواعيد التي لم تخبْ قط ولن تخيب أبدا، وإذ ندنو من يسوع ونفرح بملء محبتـــه تـــزول شـــكوكنا وينقشع ظلامنا في نور حضرته الجميل.

قال الرسول بولس إنّ الله « أنقذنا من سلطان الظلمة زنقلنا إلى ملكوت ابن محبته» كولوسي١:١٣، وكل من قد انتقل من الموت إلى الحياة «قد ختم ان الله صادق» يوحنا٣:٣٣، فيمكنه أن يشهد قائلا «احتجت إلى العون ووجدته في يسوعَ الذي سد حاجاتي واشبع جوع نفسي وجعلني أؤمن الآن أنّ الكتب المقدسة إعلان بيسوع المسيح، فإن سألتني عن سبب إيماني بيسوع أجبت أنني، اختبرته كمخلصي وإلهي وإذا سألتَني عن ثقتي بالكتب المقدسة أجبت أني وجدتها صوت الله لنفسي» وهكذا قد يكون لنا في أنفسنا الشهادة أن الكتاب المقدس حق، وأن المسيح ابن الله، وأننا في إيماننا به «لم نتبع خرافات مصنعة».

حثَّ بطرس الرسول الآخوة على أن ينموا «في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح» ٢بطرس٣:١٨، فإنه عندما يكون شعب الله ناميا في النعمة يزداد على الدوام فهما وإدراكا لكلمته تعالى، ويكون في استطاعته أن يرى نورا جديدا وجمالا جديدا في حقائقها المقدسة، ولقد صدق هذا القول في كل تاريخ الكنيسة على مدى العصور، وسيظل صحيحا إلى النهاية، كقول الحكيم، «اما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل»، امثال٤:١٨.

فبالايمان نستطيع أن نتطلع إلى الأبدية ممسكين بوعد الله من جهة ما سنكون عليه من النمو العقلي واتحاد مداركنا بالمدارك الإلهية وجعل كل قوة من قوى النفس على اتصال مباشر بمصدر النور، فحينئذ نستطيع أن نفرح ونتهلل لأن كل الأمور التي تسبب لنا حيرة وارتباكا بشأن أعمال العناية ستكون واضحة جلية، والأشياء التي تبدو لنا عسرة الفهم ستكون مدركة مفهومة، وكل

ما بدا لعقولنا مشوّشا مضطربا سنراه على أتمّ انسجام وأجمل تنسيق، «فأننـــا ننظر الآن في مرآة في لغز ولكن حينئذ وجها لوجه، الآن اعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت» ١كورنثوس١٣:١٢.

الفصل الثالث عشر

الفَرَح

إنّ أولاد الله لمدعوون ليكونوا سفراء عن المسيح مظهرين للعالم جود الرب ورحمتَه، فكما أعلن المسيح صفات الآب على حقيقتها، هكذا ينبغي أن نعلن نحن أيضا المسيح على حقيقته لعالم لا يعي حنوّ محبته وشفقتها، وقد وصف يسوع مهمتنا هذه إذ قال مخاطبا الآب، « كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم»، « أنا فيهم وأنت في ... ليعلم العالم أنك أرسلتني» يوحنا١٧:١٨و٢٣، ويخبر بها الرسول بولس في قوله عن تلاميذ يسوع «ظاهرين انكم رسالة المسيح» « معروفة ومقروءة من جميع الناس» ٢كورنثوس٣:٣و٢، ففي كل من أولاده يرسل يسوع رسالة إلى العالم ويرسل بك وأنت من أولاده رسالةً إلى أُسرتك، وإلى قريتك، وإلى الحي، الذي تسكنه لأنه وهو حالّ في قلبك يريد أن يتحدث بك إلى قلوب الذين لا يعرفونه، وقد يكون أنهم من الذين لا يطالعون الكتب المقدسة، فلا يسمعون صوته من صفحاتها، ولا يرونه في أعماله، ولكنهم، إن أنت مثّلته أمامهم، قد يفهمون شيئا من رحمته ويُربحون لمحبته وخدمته.

جعل المسيح من الذين يتبعونه منارات تنير بنوره الطريق المؤدي إلى السماء لكي يستنير كلٌّ من يراهم ويلاحظ صفاتهم ويعرف من هو المسيح وما هي خدمته.

إن نحن مثّلنا خدمة المسيح على حقيقتها تبدو جذابة خلابة، وأما المسيحيون الذين تملأ قلوبهم الكآبة والحزن وتنطق السنتهم بالتذمرات والشكاوى، فهم يمثلون الله والحياة المسيحية تمثيلا كاذبا إذ يحملون الناس على الظن بأنه تعالى لا يسرّ بسرور اولاده وسعادتهم، فهم يشهدون على أبيهم السماوي شهادة زور.

يشمت الشيطان بالله عندما ينجح في اقتياد اولاده إلى اليأس والقنوط، ويبتهج إذ يحملهم على الارتياب من ارادة المولى في خلاصهم وفي قوّته على ذلك، ويرتاح ارتياحا عظيما إذ يراهم يوجسون شرّا من العناية، فإنّ شغل ابليس الشاغل هو أن يصوّر الله لعقولنا كأنه تعالى خالٍ من الرأفة ومجرّدُ من الرحمة، وهكذا يعيّر الشيطان عن الحق تعبيرا كاذبا ويملأ المخيلاتِ بأفكارٍ عن الله فاسدة، وكثيرا ما نتأمل في أباطيل العدو هذه، ولا نتأمل في الحق، فنهين الله بشكوكنا فيه وتذمراتنا عليه، والشيطان دؤوب في تصوير الحياة المسيحية كأنها حياة التشاؤم مليئة من الاتعاب والصعاب، وعندما يظهر المؤمن امام العالم بمثل هذا المنظر فإنه بعدم ايمانه يدعم ادّعاء الشيطان الكاذب هذا.

كثيرون، وهم يسيرون في طريق الحياة، يطيلون التفكير في غلطاتهم وفي هزائمهم وخيبة آمالهم، فتمتليء قلوبهم حزنا وكآبة، كما حدث لأختٍ كتبت إليَّ وانا في اوروبا تطلب مني كلمة تشجيع في ضيقها العظيم، وحدث في الليلة التالية لقراءة كتابها أنني حلمت أني في بستان وصاحب البستان يقودني في طرقاته وانا أخطف الزهور واتلذذ بجمال رائحتها، وإذ بالأخت المشار إليها وهي تسير إلى جانبي تلفت نظري إلى العوسج والقريص الذي كان يعترض طريقها، فكانت تئنّ وتتنهد ولم تتبع القائد في الطريق بل سلكت بين الشوك

والعوسج وهي تقول «آه أليس مما يؤسف له أنّ هذا البستان الجميل تفسده هذه الاشواك»، فأجابها القائد قائلا: « دعي الاشواك وشأنها، وإلا فإنها تجرحك، واقطفي الورد والزنبق والقرنفل».

ألم تجتز في اختباراتك في مراتع هناء؟ ألم يطرب قلبك فرحا بالروح يوما ما؟ وإذا تصفحت سفر حياتك ألا تجد بين صفحاتِه صفحاتٍ ملذّة؟ أوليست مواعيد الله كزهور عاطرة نابتة على جانبي الطريق يمتليء قلبك فرحا لجمالها وحلاوتها؟

أما العوسج والاشواك، فهذه إنما تجرحك وتكدرك، وإن حصرت همك في جمعها، ورحت تقدمها للآخرين، افلا تكون بعملك هذا قد منعت الذين حولك من السير في طريق الحياة؟ بلى، وازدريت أيضا بجود الله وانكرته.

فليس من الحكمة أن نذكر مكدرات حياتنا الماضية ونكرر ذكر خطاياها واخفاقاتِها ونتحدث عنها ونحزن عليها إلى أن يغمرنا الفشل واليأس، فإنّ النفس الخائرة العزم يحفّها ظلام قاتم لا يتخلله نور الله، بل وتُلقي سحابة مظلمة على طريق الآخرين ايضا.

نشكر الله على الصور الجميلة التي يعرضها علينا في كلمته، فلنجمعن توكيدات محبته المباركة، لكي نتأملها باستمرار فنرى ابن الله تاركا عرش أبيه ولابسا الطبيعة البشرية لينقذنا من سلطة ابليس. ولنتأمل انتصاره لأجلنا فاتحا لنا ابواب السماء ومعلنا للعين البشرية حجلة حضرتِه حيث يتجلّى المجدُ الإلهي، فنرى الجنس الهالك مرفوعا من وهدة الهلاك التي تردّى فيها بواسطة الخطية، معاداً اتصالُه بالقادر على كل شيء، فائزا في امتحان الإيمان بالفادي،

مكتسبا برّ المسيح وجالسا على عرشه – إنّ هذه هي الصور التي يعرضها علينا ويريد أن نطيل التأمل فيها، فنفرح كل حين.

ولكن عندما يبدو علينا الارتياب من محبة الله وعدم الثقة بمواعيده نهينُه ونحزُن روحه القدوس، وماذا يكون شعور أمّ اذا كان اولادها يشكون منها باستمرار، كأنّها غير معنية بشؤونهم في حين أنّ كل جهودها منصرفة إلى الاهتمام بهم والعمل على إراحتهم. أو ليس ممّا يكسر قلبها أن ترى أولادها يرتابون من محبتها؟ وأي والد يرضى بأن يعامله بنوه بمثل هذه المعاملة؟ وكيف يعتبر ابونا السماوي شكوكنا في محبته بعد أن بذل وحيده لأجلنا لكي نحيا حياةً أبديةً كما قال الرسول « الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا اجمعين كيف لا يهبنا ايضا معه كل شيء» رومية٨:٣٢، ومع ذلك فكم من امريء يقول، إن لم يكن بلسان مقاله فبلسان حاله، إنّ الله لا يقصدني انا شخصيا بهذه المواعيد فربما هو يحب الآخرين ولكنّه لا يحبني أنا بالذات.

إنّ هذا الموقف ليضرّ بنفسك لأنك في تعبيرك عما يخامرك من الشكوك تفتح الباب للمجرّب وتقوّي في نفسك الميل إلى الارتياب وتحزن الملائكة القائمين على مساعدتِك وحراستِك، فإذا جرّبك العدو لا تسمح لنفسك بأن تتفوه بكلمة شك أو عدم الايمان، لأنك إذا فتحت الباب لإيحاءات العدو ووساوسه يملأ صدرك بهواجسه وفكرك بسؤالات التمرد، واذا تكلمت بما في خَلَدك لا يعود كلامك بالضرر عليك فحسب، بل تزرعُ في افكار غيرِك زرعاً ينبت ويأتي بثمرٍ قد لا يبطل مفعولُه أبدا. قد تستفيق انت من التجربة وتنجو من فخ إبليس، وهؤلاء الذين أثّرت فيهم بتعبيرك عن شكوكك قد لا يستطيعون الخلاص من

الكفر الذي زرعته فيهم بكلامك، فمن المهم جدا أن نجعل كلامَنا مقتصرا على ما يهبُ السامعين حياةً روحيةً وقوةً الهية.

ينصت الملائكة ليسمعوا ما تخبر به العالم عن ابيك السماوي، فليكن حديثك دائما عن الحي في كل حين ليشفع فيك، وإذ تصافح صديقك ليكن الحمد لله على شفتيك وفي قلبك، فإن هذا أدعى إلى اكتساب صديقك واجتذاب أفكارِه إلى المسيح.

لكل الناس محنُهم واحزانُهم التي تثقل كاهلهم ولهم تجاربهم التي يصعب عليهم مقاومتها، فلا تخبر البشر رفقاءك بأتعابك، بل ألقها على الله بالصلاة، وخذها لنفسك قاعدة أنك لا تتفوه أبدا بكلمة من شأنها أن تثني عزم غيرك أو تبِّث فيهم الشك، بل اعمل ما في وسعك لتخفف عنهم أثقالهم وتقويهم بكلمات الرجاء والثقة المقدسة.

كم من نفس باسلة ترزح تحت وطأة التجربة، وقد اوشكت أن تخور في جهادها ضد نفسها وضد قوات الشر، فلا تثبط مثل هذه النفس في صراعها الشاق، بل شددها بكلمات التشجيع والرجاء التي تدفعها إلى المضي في السير، وبذلك ينبعث منك نور المسيح ويضيء على الآخرين، « لأن ليس احد منا يعيش لذاته» رومية ١٤:٧، فإنه بتأثيرنا، من حيث لا نشعر، قد يتشجع الآخرون ويتقوون، وقد يضعفون ويخورون، فيصدون عن الإتيان إلى المسيح وقبول الحق.

كثيرون يتصورون أنّ المسيح كان صارما عابسا بعيدا عن كل تبسّم وفرح، ولذلك ترى كل حياتهم مصطبغة بهذا التصوّر المغلوط.

كثيرا ما نسمع الاية «بكى يسوع» والقول إنّ الكتاب لا يذكر أنه تبسُم، صحيح أنّ مخلصنا كان «رجل اوجاع ومختبر الحزن» لأنه حمل على قلبه ويلات البشر كلها، ولكن ولئن كانت حياته حياة إنكار الذات والتضحية وخيّم عليها سحاب من الآلام والهموم، إلا أنّ هذا كله لم يسحق روحه فيه، ولم تكن هيئته هيئة الحزين المتضجر بل هيئة الرائق المطمئن، وقلبه كان كينبوعٍ من الحياة يفيض سلاما وفرحا وابتهاجا حيثما حلّ.

كان مخلّصُنا ذا رزانةٍ وجدٍ بالغين، ومع ذلك لم يكن متجهما مكتئبا والذين يقتدون به يفعم حياتَهم الاجتهادُ الجدّي نفسه، وإذ يشعرون بثقل المسؤولية الشخصية يُبعدون عنهم كلَّ نَزَقٍ وطيشٍ وهزْل، ويكون سلامُهم كالنهر، هبة الديانة المسيحية لمعتنقيها، فهي لا تطفيء جمرةَ الفرح ولا تخمد جذوةَ الابتهاج ولا تغيّم على الوجه الوضّاح البسّام، فكما أن المسيح لم يأتِ ليُخدم بل ليَخدم هكذا هم ايضا يقتدون به والمحبة مالكة في قلوبهم.

إذا تأملنا في ما يأتيه الناس من الاعمال الجائرة القاسية نجد أننا لا نستطيع أن نحبَّهم كما أحبنا وإياهم المسيح، بيد أننا إذا أكثرنا التفكير في حنو محبة المسيح العجيب يفيض روح المسيح منا للناس، والحبّ للناس واجبُ واحترامُهم لازمٌ مهما رأينا فيهم من الهفوات والنقائص، وإذا ربّينا انفسنا على التواضع وعدم الاعتداد بالذات واللطف والصبر امام هفوات الناسِ نستأصلُ بذلك الانانيةَ من أنفسِنا ونُكسبها سعةَ صدرٍ ورحابةَ قلب.

قال المرنم، «أتكل على الرب وافعل الخير، اسكن الأرض وارع الامانة» مزمور٣٧:٣، أجل، «اتكل على الرب» لأن لكل يوم اثقاله وهمومه ومحيّراته،

ولكن حين نجتمع معا ما أكثر استعدادنا لأن نتحدث عن اتعابنا وتجاربنا، فهذا يتوجس شرّا من هنا وذاك يتوقع صعابا من هناك، وكلّنا نعبر عن ثقلِ همّنا، فكأني بنا وليس لنا مخلص حبيب شفوق وُجد في الضيق عوناً شديدا.

ويتطلع البعض إلى الهموم التي قد تأتي فيستميلون للخوف منها مع أنهم محاطون يوميا بدلائل المحبة الكثيرة ويتمتعون بهبات العناية، إلا أنهم يغضون الطرف عن البركات الحاضرة وينصرفون إلى التأمل في أمورٍ غير مستحبّةٍ قد تأتي، أو في صعوبة قد أتت، ومع صغرها، أعمت أعينهَم عن الاشياء الكثيرة التي تستوجب الشكر العظيم، فهذه الصعوبات التي يجب أن تدفعهم إلى الله تفصلهم عنه تعالى لأنها تولّد فيهم القلق والتذمر.

هل بالصواب لا تؤمن؟ ولماذا نكون عديمي الشكر وعديمي الشفقة؟ إنّ يسوع لصديقنا والسماء كلها مهتمة لصالحنا، فيجب إلا ندع ارتباكاتِ الحياة اليومية وشواغلهَا تجعلنا قلقي البال ومُقطبي الجبين، لأننا إذا استسلمنا لهذه الحال فلا بد من أن يكون لنا دائما ما ينغصنا ويكدرنا، فينبغي ألا نستسلمَ للهمّ فإن الهمّ يضنينا ويبلينا دون أن يعيننا على احتمال التجارب.

قد ترتبكُ في تجارتك وقد تتعتّم الأحوال امامك وتهددك الخسارة من كل جانب، فلا تخُر بل القِ على الرب همَّك، واحتفظ بهدوئك وانشراحك، وصلِّ إلى الله طالبا منه الحكمة في ادارة شؤونك لكي تتبصّر فيها وتمنع الخسارة والخراب، وتعمل ما في وسعك للحصول على نتائجَ مُرضيَة، فقد وعد يسوع بالمساعدة إن بذلنا نحن جهدنا، ثمّ، وقد قمت بالواجب وانت متكل على معينك الأمين، اقبل النتائج برضى وفرح.

ليست إرادة الرب أن يثقل كاهل شعبه بالهمّ غير أنه لا يريد أيضا أن يضلّنا فلا يقول لنا «لا تخافوا لأن طريقكم مأمون وليست أمامكم مخاطر» كلا، بل هو يعلمُ أن التجارب والأخطار تنتظرنا، وقد جعلنا على بيّنة من الأمر وهو لا يـوى أن يأخذ شعبه من عالم الخطية والشر، بل أن يدلهم على الملجأ الاميـن، فقـد صلى من أجل التلاميذ قائلا، « لست اسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير» يوحنا١٧:١٥، وخاطبهم قائلا: «في العالم سيكون لكـم ضيـق، ولكن ثقوا، انا قد غلبت العالم» يوحنا١٦:٣٣.

في الموعظة على الجبل علَّم المسيح تلاميذه دروسا ثمينة فيمـا يختـص بضرورة الثقة بالله، وكان القصد من هذه الدروس تشجيع اولاد الله على مـدى العصور، وقد وصلت ألينا مفعمة بالتعليمات والتعزيات، فقد وجه المسيح أنظارَ التلاميذ إلى طيور السماء وهي تنطلق في الجو مغرّدةً اناشيد الحمد والشـكران دون أن يشغلها همّ أو قلق، وهي مع كونها لا تزرع ولا تحصـد، يمدهـا الآب السماوي بكل حاجاتها، ثم سأل تلاميذه قـائلا، « ألستم انتم بـالحري أفضـل منها»، فإن رزَّاق الإنسان والحيوان هو الذي يفتح يده ويشبع جميع مخلوقاتـه خيرا، وهو تعالى لا يغفل حتى عصافير السماء إذ يسد حاجاتِـها، وإن كـان لا يضع الطعام في مناقيرها، لكنّه يعطيها فتلتقط، فهي تعـدّ أعشاشـها وتقـوت صغارها وتنطلق في الجو مغردة في عملها، لأن الآب السماوي يقوتها « ألستم انتم بالحري افضل منها»، وما قيمة العصافير بالنسبة اليكم وانتم خلائـق الله العاقلة وعبادّه الروحيون؟ أفلا يمدكم خالقكم ومخلص حياتكم بكل ما تحتـاجون اليه إن انتم توكلتم عليه؟

أشار المسيح إلى زهور البرية النامية بكثرة، الزاهية بجمالها البريء الذي به زيّنها أبونا السماوي تعبيرا عن محبته للإنسان، أشار اليه قائلا: «تأملوا زنابق الحقل، كيف تنمو» متى٦:٢٨. إنّ جمال هذه الزهور البرّي الطبيعي ليفوق كثيرا مجد سليمان، بل ولا يعادله في ظرافته الطبيعية وبهائها اللامع الحلل التي حاكها وزخرفها أمهر الصناع، ثم أردف يسوع قائلا: فإن كان الله يزين عشب الحقل الذي في يوم واحد يفنى، بشتى الألوان البديعة اللطيفة، فكم بالحري يعتني بالذين خُلقوا على صورته ومثاله فدروس المسيح هذه إنما تحوى توبيخا لذوي الفكر القلق والقلب الشاكّ الجاحد.

إن الرب يودّ لو كان أولاده سعداء، في سلوة من العيش، طائعين، كما يدلّ على ذلك قوله «سلامي أعطيكم ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب» يوحنا١٤:٢٧، «كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم» يوحنا١٥:١١.

إنّ السعادة التي ينشدها الإنسان عن دوافع ذاتية بعيدا عن طريق الواجب إنّما هي سعادة مختلة التوازن، متقلبة، ذاهبة، تضمحل تاركة النفس حزينة مستوحشة، ولكن في خدمة الله دوام الفرح والرضى فهو تعالى لا يترك المؤمن يسير في طريق الضلال، يتأسف تأسفا باطلا، وينوح خيبة الآمال، لأن البارَّ، وإن كان لا يتمتع بكثير من بركات هذه الحياة إلا أنه يتطلع إلى الأبدية بفرح عظيم.

قد يكون للمؤمن، حتى في هذه الحياة، فرح الشركة مع المسيح وابتهاج السلوك في نور محبته وتعزية حضوره الدائم، فإنّ كل خطوة يخطوها تدنيه

منه وتهبه اختبارا أعمقُ في محبته وتزيده اقترابا من وطنه المبارك، موطن السلام، فلا نطرحن ثقتَنا، بل لنزدد تيقنا ورسوخا، لأن « إلى هنا اعاننا الرب» اصموئيل٧:١٢، وهو سيعيننا إلى النهاية، ولنعدد معالم الطريق لنرى كيف أعاننا الرب وخلّصنا من يد المهلك، ولنتذكر مراحمه، الدموع التي مسحها، الآلام التي سكنَّها، الهموم التي أزالها، المخاوف التي بددها، الحاجات التي سددها، والبركات التي اسبغها، وبذلك نقوّي نفوسَنا لمواجهة ما قد يعترضنا في مراحل الطريق الباقية.

لا بدّ من أن نتوقع تحيرّات جديدة في الاحتدام المقبل، ولكنّنا، إذ نعيد النظر إلى ما قد مضى، نقول «إلى هنا أعاننا الرب» و«كأيامك قوتك» تثنية٣٣:٢٥ (حاشية)، فإن الامتحان لن يزيد صعوبة على ما نستطيع احتماله بالقوة الممنوحة، فلنعمل إذاً حيث نجد العمل متيقنين من الانتصار بالذي يقوينا.

عما قريب سيفتح المسيح أبوابَ السماء على مصراعيها لاستقبال أولاد الله، فيطرَبون لسماع البركة التي يرددها رب المجد في قوله « تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» متى٢٥:٣٤.

حينئذ يقف يسوع أمام المفديين مرحّبا بهم إلى المنزل الذي يعده لهم الآن حيث يكونون في صحبة الذين انتصروا على الشيطان، وصاغوا بنعمة الله أخلاقا كاملة، ولا يكون هناك الزناة والكذبة ولا عبدة الأوثان، وأما كل ما كان قد اعترى المفديين من نقص أو ميل إلى الشرّ فيزول عنهم بدم المسيح، ويحلّ عليهم بهاءُ مجده الذي يفوق لمعان الشمس، ويضيء فيهم مجدُ أسمى من

المجد الخارجي هو بهاء الصفات المكتملة، « لأنهم بلا عيب قدام عـــرش الله» يشاطرون الملائكة شرفَهم وميزاتهم.

فبالنسبة إلى هذا الميراث المجيد « ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟» قد يكون فقيرا ومع ذلك يملك في نفسه غنى وشرفا لا يملكهما العالم كلـــــه فـــإنّ النفس المفدّية المُطهّرةَ من الخطية، المقدسةَ قواها النبيلة لخدمة الله لأَثمنُ من الجواهر، وفي السماء يعبّر الملائكة عن فرحهم بخاطيء يتوب بتهليلات النصر المقدس وأغانيه.